
المجمع العلمي العراقي
بغداد
مجلة المجمع العلمي



مجلة المجمع العلمي



محتويــات

الجزء الرابع / المجلد السابع والخمسون

دور التعريب
في الكتابة العلمية باللغة العربية

الدكتور أحمد مطلوب

رئيـــس المجمـــع العلمـــي

الملخص :

تظهر بين حين وآخر دعوة الى تعريب العلوم في الجامعات على أساس أن التعليم باللغة الأُم ييسر تلقي العلــم بخــلاف التعلــيم باللغــة الأجنبية ، ويقف في الجانب الآخر الذين يمانعون التعريب .

وهذا البحث وقوف عند قضية التعريب ، ونظرة واقعية استمدت معالمها من الكتب العلمية المؤلفة باللغــة العربيــة ، ومــدى اســتفادة الدارسين منها في بعض الكليات والمعاهد العلمية .

وانتهى البحث من عرض أمثلة من بعض كتب الطب والهندسة والزراعة والعلوم الأخرى الى أن التعريب أدى أغراضه ، وأثبت أن الذين تلقوا العلوم باللغة العربية أظهروا تفوقهم عند اكمال دراساتهم العليا في الجامعات الأجنبية .

المقدمـــة :

(١)

التعريب بمعناه الحديث هو الكتابة والتــأليف والتــدريس باللغــة العربية ، ووضع المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية . والتعريب بهذا المعنى واسع ، فلم يخطر ببال الأقدمين هذا المعنى ؛ لأنهم كانوا يعيشون

تحت ظل دولة عربية ، وكانت لغة القرآن الكريم لغة العلوم والآداب والفنون ، ولذلك لم تحدث مشكلة ، فالعلماء كانوا يؤلفون بلغة كتاب الله ، والأدباء كانوا يدبجون بها أدبهم، ولكن الأمر اختلف في العصر الحديث عندما استعمر الوطن العربي وانقسم الى دول تابعة للاستعمار الغربي ، وصارت للغة المستعمر صولة ، واعتمدت في العلم والتدريس . وبدأت المشكلة تظهر بعد أن أخذت الدول العربية تتحفز ، وتأخذ مكانتها ، وتعيد حريتها المسلوبة ، وأخذ المخلصون ينادون بالحفاظ على اللغة العربية ، وإعادة رونقها ودورها كما كانت في عهود إزدهار الحضارة وتألق الفكر العربي .

ويقوم التعريب على ثلاثة أمور لابد منها في الكتابة العلمية وغيرها ، وهي : المصطلحات ، والترجمة ، والتأليف ، وكان العرب الأوائل قد اهتموا بالمصطلحات تعريبا ووضعا .

أما التعريب فقد شمل الألفاظ الاعجمية ، وكانت للعرب طريقة في تعريبها ذكرها أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ـ١٨٠هـ) في كتابه ، قال : " اعلم أَنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه "[١] وأوضح اسماعيل بن حماد الجوهري (ـ٣٩٣هـ) هذا المعنى بقوله : " تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها ، تقول : عَرَّبته العرب وأَعربته "[٢]. وهذا هو (المعرَّب) الذي استعمل في التأليف قديما،

---

[١] كتاب سيبويه ج٤ ص٣٠٣ .

[٢] الصحاح (عرب) .

وقلَّ استعماله حين بدأ العرب يضعون ألفاظا عربية للدلالة على معاني الكلمات الأجنبية فيما يترجمون ويؤلفون ، فأصبحت على سبيل المثال ـ : الارثماطيقي : الحساب ، والفيزيقي : الطبيعة ، وقاطيغورياس : المقالات ، واسطقس : العنصر ، وريطوريقا : الخطابة ، وأبو طيقا : الشعر .

بدأ هذا منذ عهد مبكر ، وكان المتكلمون ـ علماء الكلام ـ من أوائل الذين اهتموا بالمصطلحات ، وقد أشار أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) الى ذلك بقوله : " وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم أصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا سلفا لكل خلف ، وقدوة لكل تابع "[٣] . وأشار الى وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي (ـ ١٧٥هـ) لأوزان الشعر ألقابا لم تكن العرب تتعارف الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وأشار الى وضع النحاة وأصحاب الحساب لأسماء جعلوها علامات للتفاهم ، وقال : " إِنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء ، عن اتساع المعاني "[٤].

وكانت لهم عدة وسائل في وضع المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية مثل : الارتجال ، والاشتقاق ، والقياس ، والمجاز ، والتوليد ، ولم يأخذوا بالاقتراض كثيرا خشية طغيان الألفاظ الأعجمية على العربية ،

---

[٣] الحيوان ج١ ص ٣٢٧ .

[٤] البيان والتبيين ج١ ص١٣٩-١٤٠.

كما لم يأخذوا بالنحت ، لأنه قد يخرج عن أبنية العربية ، ولأنّ وضع كلمتين للمصطلح أكثر دقة ، وأَقربُ فهما.

وكان اهتمام المجامع العربية بالمصطلحات كبيرا ، إذ وضعت الأسس العامة لصياغتها ، وبذلك مهدت السبيل ، وصدرت مئات الآلاف من المصطلحات، ومئات المعاجم العلمية المتخصصة ، وعلى سبيل المثال أصدر المجمع العلمي ثلاثة عشر مجلدا في مصطلحات العلوم المختلفة ، فضلا عن الكراسات الخاصة ببعض العلوم ، وخمسة معاجم في ألفاظ الحضارة الحديثة ، ومثل ذلك ما صدر عن المجامع العربية الأخرى ، وعن مكتب تنسيق التعريب ، وما تقوم به المجامع في لجانها الخاصة بالمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية .

فالمصطلحات مهمة ، ولاتكون الترجمة والتأليف إلا بها ، لأنها المنطلق الأساسي لكل مشروع ترجمة أو تأليف ، قال محمد علي الفاروقي التهانوي (ـ القرن الثاني عشر ـ هـ): " أكثر ما يحتاج الى الأساتذة هو اشتباه الاصطلاح ، فان لكل علم اصطلاحا إذا لم يعلم بذلك لا يتيسَّر للشارع فيه الى الاهتداء سبيلا ، ولا الى فهمه دليلا "[٥].

وتزداد العناية بالمصطلحات ووضعها كلما اهتم المؤلفون والمترجمون والباحثون بالتعريب ، وأصبح التعليم ــ في جميع مراحله ــ باللغة العربية ، أسوة بالشعوب التي تهتم بلغاتها ، وتعتز بها ، وتصونها من سيطرة اللغات الأجنبية عليها.

---

[٥] كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص١.

اهتم العرب بالترجمة بعد ظهور الاسلام ، وكان خالد بن يزيد بن معاويـــة (ــ ٨٥هــ) " أَول مَنْ تُرجم له كتب الطب والنجوم ، وكتــب الكيمياء "[٦] ، ونقل له اصطفن كتب الصنعة[٧]. وقد قيل له : " لقد فعلــتَ أكثر شغلك في طلب الصنعة " فقال : " مــا أطلــب بــذاك إلا أَن أُغنــي أصحابي وإِخواني ، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني ، فلم أجد منها عوضا إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحدا عرفني يوما أَو عرفته الى أَن أَقف بباب السلطان رغبة أَو رهبة "[٨] وله في ذلــك كتــب عــدة ورسائل ، وله شعر كثير في هذا المعنى ، قال ابن النديم محمد بن اسحاق (ــ ٣٨٥هــ) : "ورأيت منه نحو خمسمائة ورقة ، ورأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الــصغير وكتــاب وصيته الى ابنه في الصنعة "[٩].

فالترجمة بدأت منذ العصر الأموي إِنْ لم تكن قبله ، وذلك برعاية خالد بن يزيد الذي اختزلت الخلافة دونه فعكف على العلم يُتــرجم لــه أو يترجم ليعزي بذلك نفسه، ويحفظها من ذل السؤال .

---

[٦] فهرست ابن النديم ص٤١٩ ، وفي البيان والتبيين ج١ ص٣٢٨ : " وكان أول مــن ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء ".

[٧] الفهرست ص ٣٠٤.

[٨] الفهرست ص٤١٩.

[٩] الفهرست ص٤١٩.

وعني الخليفة الأُموي عمر بن عبد العزيز (ـ١٠١هـ) بالعلوم ، وترجمت له بعض الكتب الطبية ، قال ابن النديم : إنَّ " ماسرجويه الطبيب البصري كان اسرائيليا في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان عالما بالطب ، وهو الذي تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القس في الطب ، وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة"[١٠].

وأخذت الترجمة تتسع في عهد العباسيين ، قال أحمد أمين (ـ ١٩٥٤م) : " إذا عدونا هذين (خالدا وعمر) لم نجد كبير أثر للأمويين في تشجيع الحركة الفلسفية والدينية والتأريخية كالذي نجده للعباسيين مثلا"[١١]. وكان عصر المأمون (ـ ٢١٨هـ) من أكثر العصور عناية بترجمة العلوم الى العربية لشدة اهتمامه بها ، ورغبته في أن تشاد الحضارة العربية على أسس علمية راسخة، وفي هذا العصر ترجمت كتب كثيرة في الطب ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والكيمياء ، والصيدلة، والطبيعة، والجغرافية ، والموسيقى[١٢]. واشتهر كثير من المترجمين في ذلك العصر [١٣] ، وكانت الترجمة هاجس الجاحظ ، وقد تحدث عن شروطها وقال : " ولا بد للترجمان من أن يكون في نفس

---

[١٠] الفهرست (طبعة لايبزك) ص١٤٢، نقلا عن حركة الترجمة في المشرق الاسلامي ص٧٥.

[١١] فجر الاسلام ص١٦٤-١٦٥

[١٢] ينظر حركة الترجمة في المشرق الاسلامي ص٣٣٩ ومابعدها.

[١٣] ينظر الفهرست ص٣٠٤ وما بعدها.

الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيهما سواء وغاية "(١٤).

ولم تكن الترجمة دقيقة كل الدقة في أول الأمر، إذ كان المترجمون يترجمون كلمة بكلمة من غير عناية بالصياغة والأسلوب مما جعل بعضها غير مفهوم ، ولكن الترجمة سلمت بعد ذلك وأصبحت العناية بالفكرة والأسلوب كبيرة . وكان صلاح الدين الصفدي (ـ٧٦٤هـ) فيما نقله البهاء العاملي (١٠٣١هـ ـ ١٦٢٢م) في (الكشكول) قد ذكر طريقين في الترجمة :

" الأول : طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه ".

" الثاني : طريق حنين بن إسحاق والجوهري وغيرهما ، وهو أنْ يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها، وهذا الطريق أجود، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحاق الى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيما بها بخلاف الطب ، والمنطق، والطبيعي، والالهي، فإنّ الذي عربه منها لم يحتج الى إصلاح "(١٥).

---

(١٤) الحيوان ج١ ص ٧٦.

(١٥) الالياذة ج١ ص ٧٥-٧٦ .

وقد ترجمت كتب كثيرة بالطريق الأول وبالطريق الثاني ، وذكر ابن النديم العشرات من كتب اليونان العلمية، وتحدث عن كتب (أرسطو طاليس) التي ترجمت وهي: قاطيورياس ــ المقولات ــ وباري أرمانياس ــ العبارة ــ وأنالوطيقا ــ تحليل القياس ــ وأبو دقطيقا ــ وهو أنالوطيقا الثاني (البرهان) وطوبيقا ــ الجدل ــ وسوفسطيقا ــ المغالطة ــ وريطوريقا ــ الخطابة ــ وأبوطيقا ــ الشعر ــ وأهم الكتب العلمية التي ترجمت (كتاب الحيوان) وهو " تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق ، وقد يوجد سرياني نقلا قديما أجود من العربي، وله جوامع قديمة " قال ابن النديم: " كذا قرأت بخط يحيى بن عدي في فهرست كتبه ، ولنيقولاوس اختصار لهذا الكتاب من خط يحيى بن عدي ، وقد إبتدأ أبو علي بن زرعة بنقله الى العربي وتصحيحه "[١٦]. وهو ثلاثة أقسام :

الأول : طباع الحيوان ، الذي حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي ونشره في الكويت سنة ١٩٧٧م ، وهو عشرة أقوال ضمت فصولا كثيرة عن الحيوان ، ومايتصل به ، ودلت الترجمة القديمة على أَن اللغة العربية تستوعب العلم ، وكانت عبارات المترجم غير غامضة ، ومن ذلك : " فأَما الدم فهذه حالةُ : إِنّ الدم شيء مشترك عام في جميع الحيوان الدَمِّيّ ، وهو مما يحتاج اليه باضطرار ، وهو طباعي ليس بمستأنف ولاعَرضي ، بل جوهري لها كلها طالما لم تتحطم ، وكل دم يكون في أَوعية ، أَعني في التي تسمى العروق ، وليس يكون في عضو آخر ما خلا القلب فقط . وليس للدم حسّ إذا مسّه أحد في شيء من أجساد الحيوان؛ كما ليس لفضلة

---

[١٦] الفهرست ص ٣١٢.

البطن حسّ ولا للدماغ ولا للمخ إذا مسّ أحدٌ شيئا منها. وحيثما قطع اللحم خرج منه دم إذا كان الجسد حيا ، إن لم يكن ذلك اللحم فاسدا من قبل مرض أو عرض له . ومذاقة الدم حلوة من قبل طباعه إذا كان صحيحا ، ولونه أحمر وليس بغليظ جدا، ولا رقيق إن لم يعرض له ذلك من قبل عارض أو شيء آخر مخالف لطباعه "[١٧].

الثاني : أجزاء الحيوان ، الذي حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي ونشره في الكويت سنة ١٩٧٨ ، وهو أربعة أقوال جاءت بعد عشرة (طباع الحيوان) ، وعنوانه " لايدل على موضوعه تماما، لأنه ليس بحثا في تشريح الحيوان بل في الأسباب التي حددت تركيب الحيوان وفقا لغاية معلومة ، ولذا يدرس هذا التركيب من حيث قد هيأته الطبيعة لتأدية الوظيفة المنوطة به "[١٨]. وأسلوبه كأسلوب القسم الأول ، ومن ذلك في عناصر الحي وتركيبه : " قد بينا وأَوضحنا فيما سلف من قولنا : الأعضاء التي منها تقويم وتركيب كل واحد من الحيوان ، وكم تلك الأعضاء ، فأما حيننا هذا فانا سنوضح العلل التي من أجلها خلق كل واحد من الأعضاء ، وتفرق كل واحد منها بذاته ، كما فعلنا فيما سلف. وينبغي أنْ نعلم أَنَّ أنواع التركيب ثلاثة :

فالنوع الأول من تلك الأنواع : التركيب الذي يكون من الذي يسميه بعض الناس استقصّات ، مثل الأرض والهواء والماء والنار ،

---

[١٧] طباع الحيوان ص ١٣٦.

[١٨] تصدير كتاب أجزاء الحيوان ص ٥.

وخليق أَنْ يكون أميل وأوفق أَن يكون القول : من القوى الأَساسية والقوى ليس من جميعها بل كما فصلنا في مواضع أخر فيما سلف : من الرطب واليابس والحار والبارد ، فان هذه القوى هيولى الأجساد المركبة ، فأما الفصول الأخر فهي تابعة لهذه مثل الثقل والخفة ، والكثافة والسخافة ، والخشونة والملوسة ، وسائر الآفات التي تشبه هذه وتتبع الأجساد.

فأما التركيب الثاني فمن الأوائل ، أعني من التي أجزاؤها من قبل الطباع يشبه بعضه بعضا، وهي الأعضاء التي في تركيب الحيوان من الطباع ، مثل العظم واللحم ، وغير ذلك مما يشبه هذه .

فأما التركيب الثالث وهو الأخير ، فمن الأعضاء التي أجزاؤها لا يشبه بعضها بعضا، مثل الوجه واليد ، والأعضاء التي مثل هذه " [١٩] .

والكتاب الثالث ولاد الحيوان ، وهو خمسة أقسام تكمل بقية (كتاب الحيوان) الذي هو تسع عشرة مقالة ، ويبدو " أن كتب الحيوان لأرسطو ترجمت الى العربية بوصفها كتابا واحدا يقع في (١٩) مقالة بغير تقسيمه الى (١) طباع الحيوان ، (٢) أجزاء الحيوان ، (٣) ولاد الحيوان " [٢٠] .

إِنَّ أسلوب المترجم لم يكن غامضا أو بعيدا عن لغة العصر ، وقد دل على أَنَّ العربية قادرة على استيعاب العلوم المختلفة ، ترجمة وتأليفا ، وأَن فيها من المصطلحات والألفاظ مايعبر عن المعنى المقصود .

---

[١٩] أجزاء الحيوان ص ٦٥-٦٦.

[٢٠] أجزاء الحيوان ص ٢٦.

وكان كتاب أَرسطو أَمام أبي عثمــان عمــرو بــن بحــر الجــاحظ (ــ٢٥٥هــ) حين وضع كتابه (الحيوان) ، إِذ كان المادة الثالثــة مــن مواده ــ كما ذكــر المحقق ــ ونقل منه بعض النصوص ، وردّ عليه في بعض المواضع[٢١] ، وبذلك مهد كتاب أرسطو للتأليف في الحيوان لا لغويا فحسب ، وإنما في كثير من الجوانب العلمية ، والــسياسية ، والنفــسية ، والبيئية ، وأحوال الناس وعاداتهم .

وأُسلوب الجاحظ أَرقى من أسلوب المترجم ، ويبدو أَن المترجمين لم يحسنوا النقل ، ولم يتوخوا الدقة والمطابقة كثيرا ، قال الجاحظ : " ولعــل المترجم قد أساء في الإخبار عنه "[٢٢] ، وقــد يكون السبب أُسلوب أَرسطو الذي قال الجاحظ عنه : " وكان صاحب المنطق نفــسه بكــيَّ اللــسان ، غير موصوف بالبيان مع علمــه بتمييــز الكــلام وتفــصيله ومعانيــه ، وبخصائصه "[٢٣].

وهذا ما حصل في كثير من الكتب التي تُرجمت في عهد مبكــر، ومنها كتابا أرسطو (الخطابة) و (الشعر) ، إذ كان أســلوب المتــرجمين الاوائل لا يرقى الى أُسلوب المتأخرين الذين ترجموا الكتابين أو لخصوهما كالشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا (ــ ٤٢٨٠هــ) وأبي الوليــد محمد بنْ أحمد بن محمد بن رشد (ــ٥٩٥هــ) ، وكالذين ترجموا الكتابين

---

[٢١] ينظر الحيوان ج١ ص ٢٠-٢٢ ، وأَجزاء الحيوان ص٢٩.

[٢٢] الحيوان ج٢ ص ٥٢.

[٢٣] البيان والتبيين ج٣ ص٢٧.

في العصر الحديث كالدكتور عبد الرحمن بدوي ، والدكتور ابراهيم سلامة والدكتور شكري عياد .

وترجمت كتب علمية كثيرة منها (الفلاحة النبطية) المنسوبة ترجمته الى أبي بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني المعروف بابن وحشية (القرن الرابع الهجري) ، ومن قوله في الآس سيد الرياحين : "هذا نبات طيب الريح ، وهو مشهور في إقليمنا، وربما طال وامتد الى فوق حتى يصير كالشجرة ، فيه خواص عجيبة ومنافع كثيرة حيا وميتا ، أَما حيا إذا كان كهيئته أخضر رطبا، وأَما ميتا فاليابس المسحوق والمحروق "[٢٤].

ومهما يكن من أَمر فانَّ مثل هذه الترجمات تدل على أَنَّ اللغة العربية تستوعب العلوم لأنها نامية، وقد ترجمت كتب علمية كثيرة خلال القرن العشرين ، وأُلفت على غرارها كتب باللغة العربية دُرِّسَتْ في الجامعات والمعاهد العلمية ، وانتفع بها المهتمون بالعلوم الحديثة ، وكان للجامعات والمجامع العربية فضل في هذا المضمار ، ومنها (مجمع اللغة العربية الأردني) إِذ أَصدر ضمن جهوده الرامية الى تعريب التعليم الجامعي تسعة عشر كتابا مترجما، ومن أهمها وأوسعها (الموجز في ممارسة الجراحة) وهو في أَربعة مجلدات من القطع الكبير تضم (١٤٩٤) صفحة مصورة ، وقد اشترك في تأليفه عدة مختصين في علم التشريح ، وترجمه الى العربية ثلاثة وأربعون مترجما من المشهود لهم في

---

[٢٤] الفلاحة النبطية ج١ ص١٤٢، وذكر له ابن النديم كتاب الفلاحة الكبير وكتاب الفلاحة الصغير (الفهرست ص٣٧٢) .

اختصاصاتهم الجراحية في مختلف القطاعات الطبية الأردنية. وقد اختـار المجمع ترجمة هذا الكتاب "لمكانته العلمية الرفيعة، وانتشاره الواسع عالميا في الوطن العربي ، إذ يعد أحد المراجع الرئيسة في الجراحة على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا الجامعية، كما أنَه مرجـع جراحـي مهـم للطبيب الممارس العام والمتخصص"[٢٥].

يضم الكتاب ثلاثة وستين فصلا شملت مـا يتـصل بالجراحـة ، فالجزء الأول في مبادئ الجراحـة ، والثـاني فـي جراحـة العظـام والأعصاب ، والثالث في جراحة الرأس والعنق والغدد الـصُّم والـصدر والقلب ، والرابع في جراحة السبيل الهضمي، والجهاز التناسلي والبولي .

وأُسلوب الترجمة واضح كل الوضوح، إذ حرصت هيئة تحريـر الكتاب على وضع المادة العلمية بلغة عربية سليمة ، وعـززت الترجمـة بالمصطلحات العربية والانكليزية زيادة في دقة الترجمة ، وذلك اعتمـادا على (المعجم الطبي الموحد) . وكان كل فصل ينتهي بقـراءات إِضـافية تضم بعض المصادر للتوسع في المادة العلمية .

ومن أُسلوب الترجمة في الكلام على أَمراض القلب الـصمامية : "يعتمد عمل الصمامات الأذينية البطينية على سلامة خلقة الصمام ووريقاته وحباله الوترية والعضلات الحليمية ، ويؤثر الخلل الوظيفي في عنصر أو أكثر من هؤلاء بشكل عكسي في كفاءة الـصمام ، وتـسمح الـصمامات الهلالية للدم بأَن يترك البطين في أَثناء الانقباض وتمنع قَلَسَهُ فـي أثنـاء

---

[٢٥] الموجز في ممارسة الجراحة ج١ ص (س)

الانبساط ، ويسمح شكل الصمام التكويني بذلك ، وقد يؤثر تمزق الوريقات أو الحلقة في عمل الصمام . ولا يسبب صمام القلب في حالته السوية أي إِعاقة للجريان الأمامي ، ولكنه يمنع القلس الى الجوف الداني"[٢٦].

وليس في هذا الاسلوب ما يستعصي على دارس الطب ، ومن يريد أَن يتوسع في معلوماته الطبية ، فضلا عن نشر الوعي الطبي بلغة عربية سليمة وأسلوب رفيع ، وإنه لمن المؤلم أَنْ يبقى معظم الناس بعيدين عن الثقافة الطبية التي تقيهم الأمراض .

إنّ تحصيل العلم – ولاسيما الطب – باللغة الأم أيسر وأكثر نفعا ؛ لأن تلقي العلم لا يكتمل إلا لمن يتلقاه بلغته ، وقد دلت التجارب التي مرّ بها التعليم في الوطن العربي بلغة أجنبية أن التحصيل العلمي لم يكن كبيرا إلا لمن كانت أمه أجنبية أو تمكن من غير لغته الأم لسبب من الأسباب أو وسيلة من الوسائل ، ومثل ذلك قليل عند النظر في هذه المسألة نظرة فاحصة وتجرد كبير.

كان التدريس في كلية الطب ببغداد بالانكليزية منذ تأسيسها لأَن معظم أساتذتها أجانب ، ووضعت مناهجها الدراسية على غرار المناهج في الكليات البريطانية ، ويبدو أَن الطلبة لم يستفيدوا كثيرا من التدريس بالانكليزية ، وكان ضعفهم في تلقي العلم بها واضحا، وقد قال الدكتور محمد فاضل الجمالي – مدير التدريس والتربية العام – في تقريره الذي رفعه الى وزير المعارف العراقي في الرابع عشر من شهر آذار عام ١٩٣٨م : " عدم اتقان الطلاب اللغة الانكليزية يجعل دراستهم عقيمة ،

---

[٢٦] المصدر نفسه ج٣ ص٨٤٦

ولاسيما والكتب كلها انكليزية والمحاضرون معظمهم انكليز، وقد حدث أَنْ رأيتُ أَحد الطلاب المتخرجين لم يستطع قراءة وفهم الكتاب الذي درسه في كلية الطب ، وفي هذا خطر على الأرواح لايمكن أَنْ يقدر "[٢٧].

إِنَّ تدريس العلوم باللغة العربية ضرورة تقتضيها هُويَّة الأمـــة ، وتحصيله تحصيلا كبيرا ، لئلا يتخرج الطلبة وهم لا يدركون مما درسوه إَلا النزر اليسير. وقد أدركت وزارة التعليم العالي والبحث العلمـــي فـــي العراق هذه الحقيقة حين صدر قرار التعريب سنة (١٩٧٦م) فاتجهت الى تكليف الأساتذة لتأليف الكتب وترجمتها، ومن ذلك كتاب (هندسة تكييـــف الهواء) الذي ترجمه الدكتور خالد أحمد الجودي لتدريسه في كلية الهندسة بجامعة البصرة . والكتاب في ثمانية عشر بابا شملت كل ما يتصل بهندسة تكييف الهواء ، وفيه : " عند انسياب الهواء خلال مجرى ذي مقطع دائري فان الجزء المركزي الوسطي من التيار يتحرك بسرعة أَكبر من الحلقـــات الخارجية الطرفية للتيار إِذ يتعرقل الانسياب فـــي هـــذه الحلقـــات بفعـــل الاجهادات القصية اللزجة المتكونة بين حلقات الهواء والـــسطح الخـــشن لجدار المجرى. ومع استمرار الانسياب يتضاءل مستوى الطاقـــة لتيـــار الهواء ويتمدد لانخفاض الضغط نتيجة الاحتكاك "[٢٨].

ومن الكتب المترجمة (أَساسيات الساحبات والمعدات الزراعيـــة) الذي ترجمه لطفي حسين محمد علي وتوفيق فهمي، وفيه واحد وعشرون فصلا تحدثت عن كل ما يمس مادة الكتاب ، ومن ذلـــك مـــا جـــاء عـــن

---

[٢٧] تقدم التعليم العالي في العراق ص٩٧

[٢٨] هندسة تكييف الهواء ج٢ ص٥٩٠

المحولة : "تستخدم المحولة الكهربائية لزيادة أو تخفيض الفولتية من دورة لأخرى ضمن وحدة معينة ، فعند مرور التيار الكهربائي في موصل ينتج عن ذلك مجال مغناطيسي أو منطقة شد كهربائي حول هذا الموصل ، فاذا وضع موصل ثان في هذا المجال فانَّ أي تغيير في مقدار هذا المجال أو تحريك الموصل الثاني داخل في المجال المغناطيسي ينتج عنه إحداث تيار كهربائي يمر خلال الموصل الثانيَ ، ويسمى ذلك بالحث الكهرومغناطيسي . وهذا أساس عمل المحركات الكهربائية وأجهزة الاشعال والمحولات الكهربائية .

تحتوي المحولة الكهربائية على ملفين ، أَحدهما يعرف بالملف الابتدائي ، والآخر بالملف الثانوي ، يمرر تيار متناوب خلال الملف الابتدائي لينتج عنه مجال مغناطيسي متغاير يحث الى تيار الملف الثانوي "[٢٩].

(٣)

اهتم العرب منذ وقت مبكر بالتأليف باللغة العربية بعد أن وجدوا أنَّ ماتُرجم الى العربية لا يسد الحاجة في ظل الحياة الجديدة ، وشهد العصر العباسي ازدهارا في تأليف الكتب ، وازداد الشغف بها ، وانشئت دور كتب في مختلف بقاع العالم الاسلامي ، وكان للعلوم دور كبير في حركة البحث العلمي ، وخلف العرب والمسلمون كتبا كثيرة. ومن أهم ما عنوا به الطب ، وقد تحدث الدكتور عادل البكري في كتابه (الكامل في التراث الطبي العربي) عن (٢٢٨٢) كتابا طبيا شملت ما كان معروفا في

---

[٢٩] أساسيات الساحبات والمعدات الزراعية ص١٣٥

الطب والأمراض والأدوية ، ومن أشهر تلك الكتب (الحاوي في الطب) لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ــ٣١٣هــ) ، و (القانون في الطب) للشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا (ــ٤٢٨هــ).

وهذان الكتابان يمثلان أكثر من ألفي كتاب ورسالة في الطب مؤلفة باللغة العربية .

وكانت عناية العرب والمسلمين بالحيوان كبيرة ومن أَشهر تلك الكتب المؤلفة كتاب الحيوان للجاحظ الذي لم يخلص لتشريح الحيوان ، وانما كان موسوعة عامة تتصل بالحيوان وصفاته وعاداته ، وبما قيل فيه من شعر أو نثر. ولعل كتاب (حياة الحيوان الكبرى) لكمال الدين أبي البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدميري (ــ٨٠٨هــ) أشهر كتاب " تناول فيه الكلام على الحيوانات على أنواعها: البرية التي تعيش على اليابسة سواء كانت من ذوات القوائم أم من الزواحف، ومن ذات العمود الفقري وتلك الحيوانات التي لا تحتوي أجسامها على أعمدة فقارية كالحشرات والديدان والقواقع والأصداف وبعض الأَحياء المائية الأخرى ، أَو تلك التي تعيش بين اليابسة والماء ، ثم الطيور على أَنواعها والتي تعيش بين اليابسة والهواء وسطح الماء "[٣٠]. ومما جاء في الكتاب عن (الدلفين) قول الدميري : "الدلفين : الدُّخَس وضبطه الجوهري في باب السين المهملة بضم الدال ، فقال : الدُّخَس مثل (الصُرَد) دابة في البحر تنجي الغريق ، تمكنه من ظهرها ليستعين على السباحة ويسمى (الدلفين) . وقال غيره : إِنه خنزير البحر، وهو دابة تنجي الغريق ، وهو كثير بأواخر نيل مصر

---

[٣٠] حياة الحيوان الكبرى ج١ ص٣

من جهة البحر الملح ؛ لأنه يقذف به البحر الى النيل. وصفته كصفة الزق المنفوخ ، وله رأس صغير جدا ، وليس في دوابّ البحر ماله رئة سواه ، فلذلك يسمع منه النفخ والنفس ، وهو إذا ظفر بالغريق كان أَقوى الأسباب في نجاته ؛ لأنه لا يزال يدفعه الى البحر حتى ينجيه ولا يؤذي أحدا ، ولا يأكل إلا السمك ، وربما ظهر على وجه الماء كأنه ميت. وهو يلد ويرضع ، أولاده تتبعه حيث ذهب ، ولا يلِد إلا في الصيف ، ومن طبعه الأنس بالناس وخاصة بالصبيان ، وإذا صيد جاءت دلافين كثيرة لقتال صائده وإذا لبث في العمق حينا حبس نفسه، وصعد بعد ذلك مسرعا مثل السهم لطلب النفس ، فإنْ كانت بين يديه سفينة وثب وثبة ارتفع بها عن السفينة ، ولايُرى منها ذكر إلا مع أنثى"[٣١].

وكان قد تحدث أرسطو عن (الدلفين) في عدة فصول من كتابه (طباع الحيوان) وكتابه (أَجزاء الحيوان) وجاء بمعلومات طريفة عن الدلفين وحياته ، وذكر أَنه يلد مثل الانسان ، وله ثديان قريبان من المفاصل ، وليس لهما حلمتان بينتان بل فيهما عنقان يشبهان السواقي ، وفي كل ناحية من نواحي الثديين عين واحدة ومنها يسيل اللبن وترضع جراؤه ، وهي تتبع أمها ، وله خصى لاصقة ببطنه ، وله عظام وليس له شوك ، وليس له آلة حس السمع بينة ، وهو يصر ، وصريره شبيه بصوتٍ لأن له رئة ، وهو يشخر عند نومه ، وهو يأوي الى البر ويغذو من

---

[٣١] حياة الحيوان الكبرى ج١ ص٣٨٨ .

الماء ، واذا نام يعلو خطمه الماء لكي يتنفس ، ويأكل اللحم ، وله حدة وقوة عجيبة في كثرة اللحم .[٣٢]

وعقد له مبحثا خاصا وقال : " إِنَّ الدلافين ذات دَعة واستئناس بالناس والصبيان خاصة لعشق وشوق ، وذلك في ناحية البلدة التي تسمى (طارنطا) والتي تسمى (قاريا) وأَماكن أخر. وقد زعم بعض الناس أَنه صيد في ناحية (قاريا) دلفين مجروح فلما صيد جاءت كثرة دلافين الى المرفأ حتى خلاه الملاح الذي صاده ، فلما خلاه انصرفت جميع الدلافين الى موضعها أَيضا . والدلفين الكبير يتبع أَبدا صغار الدلافين ويحفظها . وقد ظهر في الزمان السالف دلافين كبار وصغار معا، ثم بقي اثنان من تلك الدلافين ، وبعد حين ظهرت حاملة دلفينا صغيرا ميتا، وحيث كان يفلت الاثنين ويهوي الى العمق تحمله أيضا وتعوم وترفعه على ظهورها الى وجه الماء ، وكانت تفعل ذلك لكيلا يؤكل من سائر السباع. ويقال عن سرعة هذا الحيوان قول لا يؤمن به ، من أَنه أَسرع من جميع أَصناف الحيوان المائي والبري جدا. وربما نزا الدلفين في البحر نزوة عظيمة حتى يجوز أعظم ما يكون من دقل السفينة ، وإِنما يعرض له ذلك إذا طلب شيئا من السمك يريد أكله ، فإنّه إذا هربت منه السمكة التي يطلب وصارت الى العمق اتبعها الدلفين لجوعه ، وإذا لبثت في العمق حينا حبس نفسه وفكر وصعد من بعد ذلك الماء الى الناحية العليا مسرعا مثل السهم الذي يبدر

---

[٣٢] ينظر طباع الحيوان ص٢٠، ٦١، ٧٦، ٨١، ٩٦، ١٢٠، ١٤٠، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٨، ٢٦٨، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٤، ٣١٥، ٣٣٦، ٣٣٧.

من القوس لطلبه التنفس ، وإنْ كانت سفينة بين يديه وثب وثبة عظيمة حتى يجوز الدقل ويصير الى الناحية الأخرى . ومثل هذا الفعل يفعل الغواصون وأَصحاب السباحة إذا ألقوا أنفسهم في عمق، فإنّهم إذا احتاجوا الى التنفس رجعوا بسرعة الى وجه الماء .

والدلافين يكون بعضها مع بعض أَزواجا، أعني الذكور مع الإناث وهو مشكوك فيه لأي علة ربما وقعت الدلافين الى البر فانها تفعل ذلك برغم بعض الناس في الفرط وبالبخت بغير علة معروفة"[٣٣].

وفي (أجزاء الحيوان) إشارات قليلة عن الدلفين ، لا تخرج عما في (طباع الحيوان)، ومن ذلك أن الدلفين يتنفس وليس له مِرة ، وليس له نَغانغ بل له انبوبة لأَن له رئة[٣٤].

وتحدث الجاحظ عنه، وقال: إنه ليس من السمك إذ ليس " كل عائم سمكة ، وإن كان مناسبا للسمك في كثير من معانيه" [٣٥] وذكره عند كلامه على عجز الانسان وصغر قدره[٣٦]، وقال: إنه يلد ولايبيض ، وإنه يعايش السمك[٣٧].

---

[٣٣] طباع الحيوان ص ٤٥١-٤٥٢ .

[٣٤] ينظر أجزاء الحيوان ص ١٤١، ١٦٩، ١٧١، ٢٣٨ .

[٣٥] الحيوان ج١ ص ٣٠-٣١ .

[٣٦] الحيوان ج٥ ص ٥٤٥ .

[٣٧] الحيوان ج٧ ص ١٢٦، ١٤١ .

ويبدو أَن العرب اعتمدوا على كلام أَرسطو على الــدلفين ، لأَنــه كان أَوسع واكثر تفصيلا عن هذا الحيوان ، وأعجبوا بهذا الحيوان وأُطلق اسمه على بعض السفن في العصر العباسي ، ومن ذلــك دلفــين الخليفــة الأمين ، الذي قـــال أبو نواس

فيه أي في السفينة :

قد ركب (الدلفينَ) بدرُ الدجى	مُقتحمـــا للمـــاء قـــد لججا
فأشرقـــت دجلةُ مـــن نوره	وأَسفـــر الشطان واستبهجا
لـــم تَرَعيني مثله مركبـــا	أَحْســـنَ إِنْ سارَ وإِنْ عَرَّجا
إِذا اســـتحثـــته مجاذيفـــهُ	أَعنـــق فوق الماء أو هملجا
خَصّ به الله (الأمينَ) الذي	أضحى بتاج الملك قد توجا[٣٨]

لقد أشتهر كتاب (الحيوان) للجــاحظ ، وكتـــاب (حيـــاة الحيـــوان للدميري) وهو ثمرة الكتب السابقة ، وهناك كتب لم تشتهر كاشتهار كتابي الجاحظ والدميري ، منها : كتاب جابـــر بن حيان (ـــ١٨٤هـــ) وكتـــاب معمر بن المثنى (ـــ٢١١هـــ) وكتاب محمد شـــرف الـــدين بـــن يوســـف الايلاقي (ـــ٤٦٠هـــ) وكتاب أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الفيلسوف (ـــ٥٩٥هـــ)[٣٩].

وهناك كتب الأبل ، والخيل ، والغـــنم ، والـــشاء ، والوحـــوش ، والطير، والبازي ، والحمام ، والحيات ، والعقارب ، والفرس ، والنحل ،

---

[٣٨] ينظر ديوان أبي نواس ص٤١١ .

[٣٩] ينظر الكامل في التراث العربي ص ٣٨٠ ومابعدها .

والحشرات ، وغيرها مما ذكره ابن النديم في فهرسته والحاج خليفة في (كشف الظنون)[٤٠].

وأُلفت كتب في الأشجار والنباتات والفلاحة والأدوية النباتية ، وهي كثيرة صنفها الشيخ محمد حسن آل ياسين الى ثلاث مجموعات :

الأولى : المؤلفات اللغوية في النبات .

الثانية : الفصول الخاصة بالنبات في معجمات المعاني .

الثالثة : المؤلفات المعنية بالفلاحة والأدوية النباتية [٤١] .

وألفت كتب في الأزمنة والأمكنة والأنواء والأرصاد والفلك والتنجيم منها : الأزمنة والأمكنة لأبي علي المرزوقي الاصفهاني ، والأيام والليالي والشهور لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ، وكتاب الأنواء لأبي محمد عبد الله الدينوري ، وكتاب الأنواء (كتاب عريب في تفصيل الزمان ومصالح الزمان) لأبي الحسن عريب بن سعد الكاتب ، وكتاب الأنواء للحسن بن سهل بن نوبخت[٤٢].

وأُلفت كتب في الجبر والحساب والمساحة والهندسة والكيمياء وعلم الحيل (الميكانيك) والأغذية والأشربة ، وكان الاهتمام عظيما بالطب فألفت فيه آلاف الكتب والرسائل .

هذا بعض ماكان في القديم ، حيث عُني العرب والمسلمون بالتأليف بعد أنْ وجدوا أنَّ الكتب المترجمة لاتسدّ الحاجة ، فضلا عن

---

[٤٠] تنظر مقدمة الحيوان ج١ ص ١٤-١٦ .

[٤١] ينظر معجم النبات والزراعة ج١ ص ٨ ومابعدها .

[٤٢] ينظر الفهرست ص٥٢ ومابعدها ، وص ٣٥٨ ومابعدها .

ظهور العلماء الذين اهتموا بالعلـــوم المختلفة ، وأخذوا يؤلفون ليـــســـدوا حاجات عرضت ، وينشروا العلم بين الناس .

(٤)

اتجه العرب في العصر الحديث الى التأليف في الطب ، وترجمـــة كتبه ، وكانت (مدرسة القصر العيني) في القاهرة تدرس الطـــب باللغـــة العربية، ويضع أساتذتها الكتب بها، يقول الدكتور أحمد شوكة الـــشطي : " لو تصفحنا الكتب التي ألفت أو ترجمت في مدرسة القصر العيني يـــوم كان الطب يُدرس فيها باللغة العربية لوجدناها كتبا ممتازة لاتقل عن أَمثالها في ذلك الحين من كتب الغرب جودة في الطبع ، وحسنا فـــي التعبيـــر ، وبراعة في الايضاح "[٤٣].

ودَرَّست الجامعة الأمريكية في بيروت أول إنشائها الطب بالعربية، ووضع أساتذتها الكتب النافعة ، ولكن هذين المعهدين تنكرا للغة العربيـــة فيمـــا بعد وسادت لغـــة المستعمر، وفرضت على أبناء الأمـــة فرضـــا ، وقد أشار الدكتور الشطي الى ذلك ، وأوضح أسباب التنكر والانصراف ، قال : " نرى أَنَّ تبديل اللغة مُوحَى به من جهة عليا، وأَنَّ نقص الأســـاتذة الضالعين باللغة العربية لم يكن السبب الوحيد في تبديل اللغة العربية بدليل أَنَّ الكلية الأمريكية أعلنت عن عزمها على هذا التبديل منذ عام ١٨٨١م ، وأَجلته الى أَنْ وجدت الفرصة الموافقة سنة ١٨٨٣م "[٤٤].

---

[٤٣] نشاط العرب العلمي في مائة سنة ص٢٨٢ ، ودعوة الـــى تعريـــب العلـــوم فـــي الجامعات ص٢٣ .

[٤٤] نشاط العرب العلمي في مائة سنة ص ٢٨٣ .

وقال عن (مدرسة القصر العيني) : " أما العامل الذي أطاح باللغة العربية في (مدرسة القصر العيني) فكان سياسيا ، إذ رأى الأجنبي الذي نصب نفسه حاميا على بلد عربي أَنَّ في خنق اللغة مجالا لعرقلة تقدمه ، فأحكم الخطة لتنفيذ هدفه على تبديل اللغة وسط مقاومة عنيفة. ومن المؤسف أنَّه كان بين المواطنين رجال سبقوا الأجنبي فيما يتطلع اليه فتفننوا في أساليب التملق له اكتسابا لمرضاته كما تدل على ذلك آراء بعض من عالجوا هذا الموضوع ، فأنكروا فضل مَنْ أَلَّفَ بالعربية " [٤٥].

حقق الاستعمار وأَذنابه ما أرادوا ، وأُهملت العربية، وأصبحت معظم الجامعات العربية أجنبية في اتجاهاتها ولغتها، ماعدا جامعات سورية التي التزمت بالعربية ، واتخذتها أَساس التدريس في مراحل الدراسة المختلفة . وظهرت دعوات للقضاء على النهج العربي ، وزينت التدريس باللغة الأجنبية ليرتفع المستوى العلمي، وهي حجة تُرفع كلما ظهر صوت التعريب. وقد أثبتت الجامعات السورية أَنَّ الفائدة كانت عظيمة حين درس الطلبة بالعربية، وأَن الذين أكملوا دراساتهم في الخارج تفوقوا على الذين درسوها بلغتهم الأم ، أو بلغة المستعمر .

بدأت سورية بالتعريب منذ عهد مبكر من تأريخها الحديث ، قال الدكتور عزيز مريدن : " أُنشئ المعهد الطبي العربي بدمشق عام ١٩١٩م ، وأختير أساتذته من أساطين الأَطباء آنذاك، وتشاء المصادفة أَنْ يكون جلهم ممن درسوا الطب باللغة التركية، وكان عليهم جميعا أَنْ

---

[٤٥] المصدر نفسه ص٢٨٥ .

ينفــذوا برغبة وطنية مشيئة القومية العربية التي تلزمهم تعليم الطب بلغة أهل البلاد ، فشمروا عن ساعد الجد ، ونبشوا بطــون الكتــب القديمــة ، ونفذوا الى صميم المعاجم المختلفة ، وأخذوا يضعون المصطلحات الطبية، وماهي إلا بضع سنين حتى كان كلّ أُستاذ قد وضع مؤلفا في الفرع الــذي وُسِّد أَمره اليه . والآن وقد مضى على تأسيس كلية الطب بدمشق مايقرب من أَربعين عاما[٤٦]، نجد أنَّ أساتذة هذه الكلية قد أغنــوا خزانــة الكتــب العربية بما لايقل عن ثمانين مجلدا من فروع الطب المختلفة "[٤٧].

وحَذَت كلية طب الأسنان والكليات العلمية الأخــرى حَــذْوَ كليــة الطب ، واتخذت اللغة العربية وسيلة للتعليم بالجامعة ، وأَصدر الأســاتذة كتبا وبحوثا كثيرة في مختلف التخصصات العلمية ، وهي كتب وبحــوث استمدت مادتها من خبرة الأساتذة ومن متابعــة التطــور العلمــي الــذي يشهده العالم .

ولايُنكر مستوى الكتب التــي تــدرس فــي الجامعــات الــسورية إلا الجاحدون ، فقد صدرت بلغة عربية سليمة تعبر عن العلم بدقة وأُسلوب واضح يدركه الطلبة بخلاف الكتب الأجنبية التــي لا يكــون المحــصول العلمي منها كبيرا، وهذا مايثبته واقع التدريس باللغات الأجنبية. ومما يؤيد هذا ذكر بعض ما يشرح مسألة علمية مثل " داء السكري الحملي" إذ هــو كل اضطراب في استقلاب السكر يكشف لأول مرة خلال الحمــل. يجــب إجراء اختبار تحمل السكر في الأسبوع (٢٤- ٢٦) ويُعاد فــي الأســبوع

---

[٤٦] كان هذا عام ١٩٥٨ ، عند القاء المحاضرة في دار الحكمة بالقاهرة .

[٤٧] اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي ص٤٣ .

(٣٢) لكل امرأة عالية الخطورة بالنسبة للاصابة بداء السكري . وهذه الفترة توافق دورة الافراز الهرموني وبالتالي ذروة المقاومة لتأثير الانسولين. وتعتبر الحوامل عاليات الخطورة للاصابة إذا كان :

- عمر الحامل (٣٠) سنة .
- وجود قصة عائلية .
- سوابق إسقاطات أو موت محصول حمل .
- وجود بيلة غلوكوزية
- ولادة سابقة لجنين .
- البدانة وزيادة الوزن أكثر من (٢٠٪) من الطبيعي .

إذا اكتشفت الحالة باكرا وتمت مراقبتها جيدا فإنَّ نسبة الوفيات ماحول الولادة غير مرتفعة ، أما الأمراضية فهي عالية لصعوبة السيطرة على اختلاطات السكر ، (اعتلال الطفل السكري ، ضخامة الطفل) حتى وإن ضبط السكر " [٤٨]

ومما جاء عن الأوتار الفائقة: " تعبر نظرية الأوتار عن مجموعة من الأفكار الحديثة حول تركيب الكون ، تستند الى معادلات رياضية معقدة تنص على أن الأشياء (المواد) مكونة من أوتار حلقية مفتوحة من الطاقة متناهية في الصغر لاسماكة لها، وان الوحدة البنائية الأساسية للدقائق العنصرية من إلكترونات وبروتونات ونترونات وكواركات، عبارة عن أوتار حلقية من الطاقة تجعلها في حالة من عدم الاستقرار الدائم وفق

---

[٤٨] فن التوليد ص ٢٠٩ ، والكتاب مقرر لطلاب السنة الرابعة بكلية الطب .

تواترات مختلفة ، وأن هذه الأوتار تتذبذب فتصدر نغمات تتحدد وفقها طبيعة وخصائص الجسيمات الأولية الأكبر منها، مثل البروتون والنترون والالكترون . وأهم ما في هذه النظرية أنها تأخذ في الحسبان تأثير كافة قوى الطبيعة : التثاقلية والكهرومغناطيسية والقوى النووية فتوحدها في قوة واحدة ونظرية واحدة تسمى النظرية الأم" [٤٩] .

إنّ صدور العلم من مثل هذين الكتابين بهذا الأسلوب الواضح واللغة القريبة من ادراك الطالب وفهمه ، يخلق متخصصين لاتعوزهم إلا التجربة بخلاف تلقي العلم بلغة أجنبية لايدرك منه الطالب إلا الأمر اليسير وإن نجح في الامتحانات .

لقد بدأ تعريب العلوم في سورية منذ مطلع القرن العشرين ، أما في العراق فقد بدأ سنة (١٩٧٦م) حين أقر مجلس التعليم العالي والبحث العلمي إلزام الجامعات ومؤسسات التعليم البدءَ بتعريب التعليم العالي ، وصدر أمر بتأليف الكتب المنهجية باللغة العربية ، وصدرت مئات الكتب العلمية باللغة العربية ، وأقر تدريسها في الجامعات [٥٠] .

ومن تلك الكتب (مبادئ ميكانيك الموائع) للدكتور جميل الملائكة ، وقد ضم الجزء الأول منه : مبادئ ميكانيك الموائع الأساسية ، والتحليل البعدي، وكتل الموائع ، وظاهرة مقاومة الموائع. واشتمل الجزء

---

[٤٩] تأريخ الفيزياء ص ٣٠٣ ، والكتاب مقرر لطلاب السنة الرابعة فيزياء بكلية العلوم .

[٥٠] تنظر بعض تلك الكتب في حركة التعريب في العراق ص ٢٣٠ ومابعدها .

الثاني على المقاومة ، وجريان القنوات المغلقة والأنابيب ، وجريان القنوات المفتوحة ، وتطبيقات نظرية وعلمية .

وأثبت المؤلف المصطلح الانكليزي بعد المصطلح العربي عند أول وروده في متن الكتاب ، وكرره مرات في مواضع مختلفة لترسيخه وحفظ المصطلح الأجنبي ، وأعاد كتابة المصطحات بآخر كل جزء مرتبة ألفبائيا ليسهل الرجوع إليها .

كانت معظم مصادر الكتاب أجنبية عززتها خبرة المؤلف الطويلة في التدريس ، وكان أُسلوبه واضحا ، ومن أمثلة ذلك في تعريف (ميكانيك الموائع): " ميكانيك الموائع علم يُعنى بحركة الأجسام المائعة من سائل وغازات والقوى العاملة فيها ، مثلما يختص ميكانيك الجوامد بحركة الأجسام الصلبة والمرنة ، والقوى المؤثرة فيها" [٥١]. وقال عن (المائع) : " يعرف المائع بأنه الجسم الذي يتغير شكله ويتحرف بأقل قدرة من قوى القص ، ويستمر في التحرف ما دامت قوى القص واقعة عليه ، ولهذا فإنَّ أَي مائع في حالة ركود لا يمكن أَنْ تكون فيه قوة قص "[٥٢].

وعلى غرار هذا الكتاب أُلفت كتب الهندسة الأخرى مثل (مبادىء هندسة تكييف الهواء والتثليج) للدكتور خالد أحمد الجودي ، ومما جاء فيه عن (الرطوبة النسبية) : " إِنَّ خليط الهواء وبخار الماء لا يخضع تماما

---

[٥١] مبادىء ميكانيك الموائع ج١ ص٤٥ .

[٥٢] المصدر نفسه ج١ ص ٤٧ .

لقانـــون الغاز المثالي ، ولكن للضغوط الواطئة ولغاية (bar ٣) تقريبـــا تكون النتائج المتحصلة من القانون كافية الدقة بحيـــث تـــسمح باســـتعماله للحسابات الهندسية المعتادة في درجة الحرارة والضغوط التي تتعامل بهـــا في تكييف الهواء "[٥٣].

وكتاب " مبادئ ديناميك الغـــازات " للـــدكتور منـــذر اســـماعيل الدروبي ، وفيه : " يعتبر موضوع ديناميك الغازات أَحد فروع ديناميـــك الموائع وهو يتعلق بجريان الغازات بالأخص الجريان الذي تحـــدث فيـــه تغييـــرات كبيـــرة فـــي كثافـــة الغـــاز ، أَي بعبـــارة أخـــرى الجريـــان الانضغاطي "[٥٤].

وكتاب (انتقـــال الحـــرارة) للـــدكتور عبـــد الكـــريم عبـــد الله البهادلي ، وفيه : " يختلف انتقال الحرارة بالاشـــعاع عنـــه فـــي حـــالتي التوصيل والحمل الحراري بعدم لزوم وجود وسط تنتقل عبره الحرارة من جسم الى جسم آخر بسبب الفرق في درجة حرارتهما بحيث يمكن أَنْ يـــتم الانتقال الحراري عبر الفراغ ، وكذلك بكون الطاقة المنتقلة ذات علاقـــة بدرجة الحرارة المطلقة للأجسام مرفوعة الى الدرجة الرابعة "[٥٥].

وكانت كليات الزراعة في الجامعات العراقية من أكثـــر الكليـــات اهتماما بالتعريب ، ومن الكتب المنهجية كتاب (تكنولوجيـــا الحبـــوب) للدكتور محمد عبد الله السعيدي ، وفيه: " أَما التشريح لأنسجة حبة الحنطة

---

[٥٣] مبادئ هندسة تكييف الهواء والتثليج ص٤١ .

[٥٤] مبادئ ديناميك الغازات ص٢٥ .

[٥٥] انتقال الحرارة ص٤٠١ .

فيمكن إعطاء تفاصيلها من الخارج الى الداخل كالآتي : القشور الخارجية (النخالة) والسويداء ، والجنين ... منطقة القشور الخارجية تتكون من عدد من الطبقات ، ثم تأتي الطبقة الخارجية للسويداء وهي طبقة الأليرون الكبيرة للخلايا التي تلتصق بطبقات القشورية مما يصعب فصلها من مكونات السويداء التي تكون الطحين. ومنطقة السويداء هي المنطقة التي تكون مكونات الطحين ، لذلك فهناك احتمال للحصول على نسبة استخلاص من الطحين من الحنطة بمقدار (٨٣٪) حسب النوع والصنف وطرق التصنيع المختلفة "[٥٦].

وكتاب (الري ـ أساسياته وتطبيقاته) للدكتور نبيل ابراهيم الطيف ، وعصام خضير الحديثي ، وفيه : " إن تعيين الاستهلاك المائي للمحاصيل المختلفة هو المرحلة الأولى والمهمة لتخطيط الادارة المثلى للمياه المتوفرة ، أما القيم القصوى للاستهلاك المائي فتتحدد بموجبها سعة قنوات الري وأساليب السيطرة عليها. وتعتبر قيم الاستهلاك المائي المحتملة تحت ظروف مناخية معينة . إنَّ الري الناجح يجب أَنْ يبدأ بتحديد كمية الماء التي يحتاجها النبات ثم تجهيز هذه الكمية " [٥٧].

وكتاب (فحص وتصديق البذور) لهاشم محمد أمين وعلي حسين عباس، وفيه عن (استخلاص العينات) : " هو إجراء الفحص المختبري على جزء صغير من البذور يسحب من الإرسالية بموجب قواعد أُصولية ، ويمثلها أَصدق تمثيل بحيث يعبر هذا الجزء عن محتويات الإرسالية

---

[٥٦] تكنولوجيا الحبوب ص٢٣٢ .

[٥٧] الري ـ أساسياته وتطبيقاته ص ٢٠٧ .

وتجانسها ــ يقصد بكلمة (تجانس) هنا ــ هــو أَنْ تكون الإرسالية متماثلة بما تحتويــه من مواد غريبـــة وبذور أدغال "[٥٨].

وكتاب (تغذية الدواجن) للدكتور اسماعيل خليل ابراهيم ، وفيــه : " إن احتواء المواد العلفية الأَولية على نسبة عالية من الرطوبة يجعلها أكثر عرضة لغزو البكتريا والفطريات مقارنة بما هو عليه الحال بالنسبة للمواد ذات المحتوى الأقل من الرطوبة . وهنا يكمن الخطر الحقيقي ، إِذ إِنَّ نمو هذه الكائنات الحية في المواد العلفية الأولية يُؤدي أَولا إلى تــدني قيمتهــا الغذائية، وثانيا يتسبب في تدهور صحة الطائر بسبب السموم التي تفرزها البكتريا والفطريات " [٥٩] .

وكتاب (أسس الكيمياء العضوية) للدكتور يوسف علي الفتاحي ، وفيه عن (عدم التناظر والأنداد البصرية) : " إِنَّ معظم التفاعلات التي تحدث فــي الكائن الحي بحاجة الى نوع خاص من البروتينات تعمــل كعوامــل مــساعدة ، وتسمى هذه المحفزات بالانزيمات ، وتعرف المركبات التي تحفزها الانزيمــات في تفاعلها بالمواد الأساس ، وللجزيئات أيضا أشكال خاصة ، ولحدوث التحفيز فان جزيئة المادة الأساس ــ وتسمى أيضا الركيزة ــ يجــب أَنْ تنطبــق علــى سطح جزيئة الانزيم وتترابط معها بشكل معقــد ، ويأخــذ التفاعــل بعــد ذلــك مجراه الطبيعي ، فاذا لم يتطابق ســطح الركيــزة مــع ســطح الانــزيم فــلا يحدث التفاعل " [٦٠] .

---

[٥٨] فحص وتصديق البذور ص٩١ .

[٥٩] تغذية الدواجن ص ٢٠٦-٢٠٧ .

[٦٠] أسس الكيمياء العضوية ص ٢٠٧ ، والكتاب منهجــي لطلبــة كليــة الزراعــة، وعلوم الحياة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وانما كتبت رسائل الماجستير والدكتوراه باللغة العربية ، وكانت علمية بما انتهت اليه من نتائج، ومن ذلك رسالة الماجستير (تأثير ضغط انتفاخ الاطارات القائدة ونوع المحراث وسرعة الساحبة في بعض المؤشرات الفنية وبعض صفات التربة الفيزيائية) [٦١] ، للباحثة صبا عبد العزيز حميد علي الحديثي ، وقد عالجت فيها المؤشرات الفنية ، والصفات الفيزيائية للتربة ، والمواد وطرق العمل وكل مايتصل بعنوان الرسالة ، وانتهت الى الاستنتاجات والتوصيات ، وهذا البحث وغيره من الرسائل والاطاريح المكتوبة باللغة العربية ، يدل على أنَّ لغة الضاد قادرة على التعبير عن العلم ، وتقديمه بأسلوب يُقرِّبه ، ويضفي عليه الدقة والابتكار.

ومن المؤلفات العلمية كتاب (النضائد " البطاريات" الحديثة) للدكتور جلال محمد صالح ، وقد درس فيه مواصفات النضائد وأنواعها واستخداماتها، وفيه عن (تفاعل الخلية) : " يتألف تفاعل الخلية الكهروكيميائية عادة من تفاعلين : أحدهما هو تفاعل تأكسد تتحرر فيه الالكترونات ، والآخر هو تفاعل اختزال يتم فيه استهلاك الالكترونات المتولدة في تفاعل التأكسد . ويمكننا القول أنَّ الخلية الكهروكيميائية تتألف من نصفين : النصف الأول ويتم فيه تفاعل التأكسد وتحرر الالكترونات، والنصف الثاني ويتم فيه تفاعل الاختزال واستهلاك الالكترونات التي تصل اليه . يدعى كل من هذين النصفين (نصفي الخلية) بالقطب ، فالخلية الكهروكيميائية تكون من قطبين : أحدهما يعبر عن

---

[٦١] نوقشت في كلية الزراعة (جامعة بغداد) سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

تفاعل التأكسد وتحرر الالكترونات ، والآخر يعبر عن تفاعل الاختزال واستهلاك الالكترونات "[٦٢].

ومنها كتاب (المنطلقات الفكرية والفلسفية في الفيزياء) للدكتور علي عطية ، وفيه : " وجد أَنَّ النواة الذرية أي نواة الذرة هي الأخرى تكوين له مكونات عرفت اصطلاحا على أَنها البروتونات التي تحمل شحنة موجبة الاشارة مساوية كميا لشحنة الالكترون ، ثم المكون الثاني للنواة هو النترون وهو متعادل على مستوى الشحنة ــ كما يدل على ذلك اسمه ــ لكن كتلته أكبر قليلا من كتلة البروتون ... إذن نحن أمام نواة ضمن كون الذرة هي الأخرى وجدت تعبر عن كون مصغر حيث وُجد أَنَّ هذه الجسيمات النووية ترتبط مع بعضها مكونة نواة تحت تأثير قوة اكبر بكثير من قوة الجاذبية "[٦٣] .

وصدرت ضمن عملية التعريب كتب طبية منهجية منها: علم الأنسجة ، وأسس علم الطفيليات السريري ، والفسلجة ، وعلم الأمراض العام ، وعلم الأحياء الطبي. وهذه القلة من الكتب الطبية سببها المعوقون الذين لايؤمنون بأمتهم ولغتها ، ويزينون للمسؤولين ما يجعلهم يقفون بوجه دعاة التعريب ، فهم كما قال أبو نواس :

فكأني وما أُزيّنُ منها   قَعَديٌّ يُزيّنُ التحكيما
كَلَّ عن حمله السلاحَ الى الحر   بِ فأوصى المطيقَ ألا يُقيما [٦٤]

---

[٦٢] النضائد (البطاريات) الحديثة ص٢ .

[٦٣] المنطلقات الفكرية والفلسفية في الفيزياء ص٣٠٨ .

[٦٤] ديوان أبي نواس ص٢٩ .

(٥)

هذه وقفة عند بعض الكتب العلمية المترجمة والمؤلفة ، وقد اتضح أنها:

١- اعتمدت على أَحدث المصادر الأجنبية في مادتها العلمية.

٢- خلاصة خبرة المترجمين والمؤلفين في الترجمة والتأليف والتدريس.

٣- اتصفت بلغة عربية واضحة وأُسلوب سلس وضّاء.

٤- خضعت للتقويم العلمي.

٥- خضعت للتقويم اللغوي.

٦- احتوت قوائم بالمصطلحات العلمية ، فضلا عن ورودها في أثناء الكتب ، إذ ذكر المصطلح الأجنبي بعد العربي.

٧- كتبت بعض العناوين الأساسية والفرعية باللغة العربية والانكليزية زيادةً في الفائدة ودقةً في الأداء.

٨- زُوِّدت بالخطوط البيانية ، والرسوم التوضيحية ، والمعادلات العلمية ، والتطبيقات العملية .

٩- دلَّت على أنَّ اللغة العربية تستوعب العلوم الحديثة لما فيها من قدرة على النمو بالاشتقاق والمجاز والقياس والتوليد.

هذا أهم ما ميَّز الكتب المنهجية ، وهي لا تختلف في أَوصافها العلمية عن أَي كتاب علمي أَجنبي ، ولو أَخذت الجامعات العربية بالتعريب لأصبح كثير من خريجيها مُنتجين لا مُستهلكين ، وقد دلّت الرسائل الجامعية المكتوبة بالعربية على أنها علمية ، وأنها حققت الهدف الذي من أجله بحثت.

وبعـــد : فلماذا التعريب والكتابة العلمية باللغة العربية ؟

١- إِن التعليم باللغة الأم يعبر عن الهُويّة القومية والوطنية ، وييسر تلقي المعرفة والعلم فهما واستيعابا.

٢- إِنه يشجع على وضع المصطلحات العلمية وتأليف الكتب .

٣- ينشط حركة الترجمة العلمية .

٤- إنه يشجع على تعلم اللغات الأجنبية لينتفع الباحث بما في الكتب العلمية من جديد ، ويضيفه الى معلوماته وتخصصه .

إِنَّ التمسك باللغة الأجنبية في التعليم لا يخدم الحركة العلمية كـــلَّ الخدمة ، ولاسيما عند توجه العرب الى دول مختلفة لإكمـــال تحـــصيلهم العلمي ، لأَن كل دولة تدرس بلغتها ، وهنا يضطر المبعوث أَنْ يتعلم تلك اللغة ليقبل في الجامعة بعد أنْ يُؤدي عدة امتحانات في لغة تلك البلاد.

لقد انتهى عهد احتكار العلم وحصره في دولة أو دولتـــين ، فمـــن الشرق الى الغرب عشرات الدول التي نهضت بعد الحرب العالمية الثانية ، وبنت كيانها العلمي المتطور، ودرست العلوم بلغاتها، ولا أخال أَن أحـــدا ينكر تقدم اليابان والصين وروسية والمانية واسبانية وغيرها مـــن الـــدول التي يشهد العالم حضارتها وتقدمها العلمي ، وإنه لمن التخلف أَنْ ينحصر العلم في دولة أو دولتين .

ولابـــد أَنْ يعتمد التعريب على أُسس مهمة منها :

١- القرار السياسي الحازم الذي يُلزم الجامعات والمؤســسات التـــدريس باللغة العربية .

٢- الايمان بالتعريب الذي يعزز الارتباط بالوطن .

٣- المتابعة الجادة لعملية التعريب .

٤- عقد الندوات والمؤتمرات العلمية وتدارس حركة التعريب ودفعها الى الأمام .

٥- الاهتمام بالكتاب العلمي وطبعه طبعا متقنا .

٦- الاهتمام بالبحث العلمي وتشجيع الباحثين .

٧- الاهتمام بالنشرات العلمية وإصدار المجلات العلمية باللغة العربية واعتمادها في الترقيات .

٨- العناية باللغات الأجنبية وتشجيع ترجمة الكتب العلمية .

٩- تهيئة المعاجم اللغوية والعلمية المتخصصة .

١٠- الاهتمام بالمصطلحات العلمية وتوحيدها .

وتقع المسؤولية على الحكومات التي لها الصلاحيات لإنجاز عملية التعريب ، وذلك بإنشاء مؤسسات تنفذ القرار السياسي وتعمل من أجل الوطن ، ومنها المجامع اللغوية والعلمية والجامعات ، إذ في المجامع علماء يتدارسون ويضعون الخطط والمصطلحات العلمية ، وفي الجامعات أساتذة يترجمون ويؤلفون ويدرسون .

وصفوة القول :

إنَّ تعريب العلوم في جميع المراحل الدراسية ييسر الكتابة العلمية باللغة العربية ، وقد شهدت بذلك كتب العلوم المختلفة في القديم ، كما شهدت الكتب العلمية المنهجية التي تدرس في بعض الجامعات العربية بذلك ، ومنها الجامعات السورية التي تخرج فيها آلاف الطلبة ، وأكمل بعضهم دراسته العليا بتفوق في الجامعات الأجنبية .

وحرصت الجامعات العراقية على التعليم باللغة العربية منذ صدور قرار التعريب سنة (١٩٧٦م) وسارت عملية التعريب بخطى ثابتة ، وصدرت مئات الكتب العلمية باللغة العربية ودُرّست ، ولأمرٍ ما حدثت الردة وعطل (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) [٦٥] وأُلغيت (الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) سنة ١٩٩٢م، وهي الهيئة التي كانت تُشرف على تنفيذ القانون . حدث ذلك بحجة أَنَّ التعليم بالعربية يحط من المستوى العلمي ، وثبت أَنَّ التعليم باللغة الأجنبية أدى الى تدهور المستوى العلمي ، ليس الآن فحسب وإنما منذ أَنْ أَطلق الدكتور محمد فاضل الجمالي صرخته سنة ١٩٣٨م .

إِنَّ اللغة العربية ليست قاصرة عن استيعاب العلوم إذا صدقت النوايا ، وشُرعت قوانين التعريب ، وأُلزمت الجامعات والمؤسسات العلمية بالتنفيذ.

العربية ص٥) ففيه صورة الكتاب كما عمم على الوزارات والمؤسسات ، للعمل به.

---

(٦٥) أصدرت الأمانة العامة لمجلس الوزراء في العراق أمرا للالتزام بالقانون وذلك في ٢٠٠٩/٤/٨م (ينظر كتاب الهيئة العليا للعناية باللغة .

المصادر:

١- أجزاء الحيوان ـ أرسطو طاليس . ترجمة يوحنا بن البطريق . تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ الكويت ١٩٧٨م .

٢- أساسيات الساحبات والمعدات الزراعية ـ تأليف جي. أم. شين ـ سين ـ ترجمة لطفي حسين محمد علي وتوفيق فهمي ـ الموصل .

٣- أسس الكيمياء العضوية ـ الدكتور يوسف علي الفتاحي ـ الموصل ١٩٨٩م .

٤- الإلياذة ـ هوميروس ـ تعريب سليمان البستاني ـ القاهرة .

٥- انتقال الحرارة ـ الدكتور عبد الله عبد الكريم البهادلي . بغداد ١٩٩١م .

٦- البيان والتبيين ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

٧- تأريخ الفيزياء ـ الدكتور مفيد دياب والدكتور زكريا ظلام ـ حمص ٢٠٠٧- ٢٠٠٨م .

٨- تغذية الدواجن ـ الدكتور اسماعيل خليل ابراهيم ـ الطبعة الثانية ـ الموصل ٢٠٠٠م .

٩- تقدم التعليم العالي في العراق ـ حسن الدجيلي ـ بغداد ١٩٦٣م .

١٠- تكنولوجيا الحبوب ـ الدكتور محمد عبد السعيدي ـ الموصل ١٩٨٢م .

١١- حركة الترجمة في المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة ــ الدكتور رشيد الجميلي ــ بغداد ١٩٨٦م .
١٢- حركة التعريب في العراق ــ الدكتور أحمد مطلوب ــ الكويت ــ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
١٣- حياة الحيوان الكبرى ــ كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدميري ــ بيروت ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
١٤- الحيوان ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ القاهرة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م .
١٥- دعوة الى تعريب العلوم في الجامعات ــ الدكتور احمد مطلوب ــ الكويت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
١٦- ديوان أبي نواس ــ تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي ــ بيروت .
١٧- الري : أَساسياته وتطبيقاته ــ الدكتور نبيل ابراهيم الطيف وعصام خضير الحديثي ــ الموصل ١٩٨٨م .
١٨- الصحاح ــ اسماعيل بن حماد الجوهري .
١٩- طباع الحيوان ــ أرسطو طاليس ــ تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي. الكويت ١٩٧٧م .
٢٠- فجر الاسلام ــ احمد أمين ــ الطبعة السابعة ــ القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
٢١- فحص وتصديق البذور ــ هاشم محمد أمين وعلي حسين عباس ــ الموصل ١٩٨٨م .

٢٢- الفلاحة النبطية ـ الترجمة المنحولة الى ابن الوحشية أبي بكر احمد بن علي ابن قيس الكسداني ـ تحقيق توفيق فهد ـ دمشق ١٩٩٣م .

٢٣- فن التوليد ـ الدكتور بشير ناصيف وجماعته ـ حلب ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢٤- فهرست ابن النديم ـ أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بابن النديم ـ تحقيق رضا تجدد ـ طهران ١٩٧١م .

٢٥- الكامل في التراث الطبي العربي ـ الدكتور عادل البكري ـ بغداد ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

٢٦- كتاب سيبويه ـ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م وما بعدها .

٢٧- كشاف اصطلاحات الفنون ـ محمد علي الفاروقي التهانوي ـ تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع . القاهرة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .

٢٨- اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي ـ الدكتور مازن المبارك ـ بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٢٩- مبادئ ديناميك الغازات ـ الدكتور منذر اسماعيل الدروبي ـ الطبعة الثانية ـ الموصل ١٩٨٨م .

٣٠- مبادئ ميكانيك الموائع ـ الدكتور جميل الملائكة ـ ج١ سنة ١٩٨٢، ج٢ سنة ١٩٨٥م ـ بغداد .

٣١- مبادئ هندسة تكييف الهواء والتثليج ــ الدكتور خالد احمد الجودي ــ البصرة ١٩٨٦م .
٣٢- معجم النبات والزراعة ــ الشيخ محمد حسن آل ياسين ــ بغداد ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
٣٣- المنطلقات الفكرية والفلسفية في الفيزياء ــ الدكتور علي عطية عبد الله ــ الطبعة الثانية ــ بغداد ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
٣٤- الموجز في ممارسة الجراحة ــ ترجمة مجمع اللغة العربية الاردني ــ (أربعة أجزاء) ــ عمان ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
٣٥- نشاط العرب العلمي في مائة سنة ــ مجموعة بحوث شارك فيها كثير من الباحثين ــ بيروت ١٩٦٣م.
٣٦- النضائد " البطاريات " الحديثة: (مواصفاتها، أنواعها واستخداماتها الحالية) ــ الدكتور جلال محمد صالح ــ بغداد ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
٣٧- هندسة تكييف الهواء ــ تأليف دبليو . بي . جونز ــ ترجمة الدكتور خالد أحمد الجودي ــ البصرة ١٩٨٤م .
٣٨- الهيئة العليا للعناية باللغة العربية ــ الدكتور احمد مطلوب ــ بغداد ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

هذه أهم المصادر التي رسمت معالم البحث ، أما الرسائل العلمية الجامعية المكتوبة باللغة العربية فكثيرة منها رسالة الماجستير (تأثير ضغط انتفاخ الاطارات القائدة ونوع المحراث وسرعة الساحبة في

بعض المؤشرات الفنية وبعض صفات التربة الفيزيائية) للباحثة صبا عبد العزيز حميد علي الحديثي ، وقد نوقشت سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م في قسم المكننة الزراعية بكلية الزراعة ــ جامعة بغداد ، وهذه الرسالة وغيرها تدل على أن اللغة العربية لغة علم لا لغة فن وأدب فحسب ، كما يتهمها المعوِّقون .

إشكاليةُ مُصْطَلَحَي اللُّغَةِ الفَصيحَةِ واللُّغَةِ الفُصْحى في تراثِنا اللُّغويِّ

الدكتور عامر باهر أسمير الحيالي
جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية

الملخـص :

لفتني في أثناء استقرائي المعجمات العربية القديمة ومؤلفات علماء اللغة الأوائل أن أصحابها لم يستعملوا فيها مصطلح اللغة الفصيحة إلا في مواضع معدودة ، كما وجدت معظمهم لم يأتِ على ذكر مصطلح اللغة الفصحى قط؛ بيد أني توصلت الى أن إشكالية هذين المصطلحين لا تكمن في قلة استعمالهم إياهما أو في عدمه ، بل تكمن في خلطهم بينهما تارة ، وتعدد المصطلحات الدالة على مفهوميهما لديهم تارة أخرى ؛ لذا ستكون مهمة هذا البحث :

تأصيل مفهومي هذين المصطلحين لبيان الفرق بينهما من حيث اللغة والاصطلاح ، ومن ثم تأكيد أن كلا منهما مصطلح قائم برأسه .

وفي ضوء ما تقدم جعلت هذا البحث في تمهيد ومبحثين ، تحدثت في التمهيد عن مفهوم المصطلحين في اللغة والاصطلاح ، وتكلمت في المبحث الأول على إشكالية المصطلحين لدى علمائنا الأوائل حتى نهاية

القرن الرابع للهجرة ، أما المبحث الثاني فخصص للحديث عن إشكالية المُصْطَلَحين لدى علمائنا القدماء منذ نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث عشر للهجرة ، آمل أن أكون قد وفقت في عملي هذا والله من وراء القصد .

المقدمة :

مصطلحا الفصيحة والفصحى في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ) : ((الفاء والصاد والحاء أصل يدل على خلوص في شيء ونقاء من الشّوب . من ذلك اللسان الفصيح : الطليق . والكلام الفصيح : العربي ، والأصل أفصح اللَّبَنُ : سكنت رغوته . وأفْصَحَ الرجل : تكلم بالعربية وفَصُح : جادت لغته حتى لا يلحن ... وحكي : فَصُحَ اللبن فهو فصيح ، إذا أخذت عنه الرغوة. قال:

وتحتَ الرَّغْوةِ اللَّبنُ الفصيحُ)) [١]

ومن هذا التعريف تبرز معاني الفصاحة الآتية : الخلوص ، والصحة والوضوح ، والجودة ، وانعدام اللحن ، والبيان والسلامة من الإبهام وسوء التأليف[٢]، فالرجل الفصيح في ضوء ما تقدم هو من أبان وأوضح في كلامه، وجادت لغته حتى لا يلحن ، واللفظ الفصيح ، هو الكلام العربي المحض ، واللغة الفصيحة هي التي خلصت مما يشوبها من العامي والدخيل .

---

[١] مقاييس اللغة : ٤/٥٠٦ ـ٥٠٧ ، وينظر : الصحاح : ١/٣٩١.

[٢] ينظر : الفصاحة فصاحات أو الدعوة إلى ضرورة مراجعة أصول الفصاحة : محمد رشاد الحمزاوي ، حوليات الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد١٦، ١٩٧٨، ص٤٨.

إذا كانت المعاجم العربية قد اقتصرت في حديثها عن الفصاحة على توضيح الأصل اللغوي لمصطلح الفصاحة ، وأوضحت دلالة الفصيح لغة ، فإنها لم تشر إلى دلالة مصطلح الفصحى إشارة صريحة مع أنها مشتركة في الأصل اللغوي مع مصطلح الفصيحة ، الحق إن معرفة مفهوم مصطلح اللغة الفصحى وعلاقته بمصطلح اللغة الفصيحة هي مسألة ذات صلة بموضوع (أفعل التفضيل) ، أو (اسم التفضيل) الذي عرفته كتب الصرف بأنه اسم مشتق على صيغة (أفْعَل) للمذكر و(فُعْلى) للمؤنث ، للدلالة على أن هناك شيئين اشتركا في صفة معينة ، وزاد أحدهما على الآخر في هذه الصفة [٣] ، ولتوضيح العلاقة بين الفصيحة والفصحى في ضوء هذا التعريف نضرب المثال الآتي :

إذا قلنا : إن كل لغة من لغات القبائل العربية الست التي وردت في مقولة الفارابي[٤] تعد (لغة فصيحة) ، نقول بإزائها إن اللغة التي نزل القرآن الكريم بها تعد (اللغة الفصحى) ، وهذا يعني أن لغات القبائل

---

[٣] ينظر: الصرف الواضح : ١٨٦ ، والصرف الوافي : ١١١.

[٤] قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه : الألفاظ والحروف : ((كانت قريشٌ أجودَ العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النُطْق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانَة عمّا في النفس ، والذين عنهم نُقِلت اللغة العربية وبهم اقْتُدي وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربيُّ من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذ ومعظمه وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتَّصْريف ثم هذيل وبعض كِنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضَريٍّ قطّ ولا عن سكّان البَرَاري ممن كان يسكنُ أطرافَ بلادِهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم...)) / المزهر:١/٢١١ ــ٢١٢.

العربية ولغة القرآن كلها اشتركت في صفة واحدة هي " الفصاحة" ، إلا أن لغة القرآن زادت فصاحتها على فصاحة لغات القبائل العربية ؛ ولهذا أطلق على لغة القرآن مصطلح (الفُصحى) على وزن(فُعلى) فهو إذاً (اسم التفضيل) ، ويسمى (المُفضّل) ، وأطلق على لغات القبائل مصطلح (الفصيحة) ، ويسمى المُفضّل عليه ، أو المفضول[٥] ؛ وهذا يعني أن مستوى الفصحى أعلى من مستوى الفصيحة ، بل هو أعلى مستويات اللغة العربية ؛ لأن اختلاف المبنى في العربية يؤدي إلى اختلاف المعنى ، وعليه فإن مصطلح اللغة الفصيحة لا يرقى إلى مستوى مصطلح اللغة الفصحى بالضرورة ، ولذلك قال ابن خالويه في شرح الفصيح : ((قد أجمع الناسُ جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن ، لا خلاف في ذلك))[٦] ؛ يفهم من كلام ابن خالويه أن هناك مستويين "فصحى"وهي لغة القرآن الكريم ، وفصيحة وهي مستوى دون المستوى الأول ، وعليه يمكننا القول إن الصلة بين اللغة الفصيحة واللغة الفصحى هي من قبيل صلة الخاص بالعام ، فكل فصحى فصيحة بالضرورة ، ولا يكون العكس .

أما الفصيح بالمعنى الاصطلاحي عند علماء اللغة فهو ما كثر استعماله على ألسنة العرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم وأن يكون

---

[٥] ينظر : الصرف الواضح : ١٨٥.

[٦] المزهر في علوم اللغة وأنواعها :١/١٢٩.

استعمالهم له أكثر[٧]. واللغة الفصيحة هي التي خلصت مما يشوبها من العامي والدخيل ، وعيوب اللهجات .

أما الفصحى في الاصطلاح فقد يحلو للكثير من طلاب العربية أن يصفوها بأنها لهجة قريش أو لغة قريش مدعين أن العرب قد أخذوا هذه اللغة الفصحى عن تلك القبيلة العظيمة ، وعلى هذا الأساس عدت لغة قريش أفصح لغة من بين لغات القبائل العربية ، وهذا سبب قول القائلين إن القرآن قد نزل بها ، ولسنا بحاجة إلى مناقشة هذه المسألة في هذا البحث ؛ لأن ليس هذا مجالها؛ولأن الدكتور تمام حسان قد كفانا مؤونة ذلك بردِّه هذه الدعوى وكلامه عليها كلاما مفصلا. [٨]

والحق أقول : إن اللغة الفصحى هي ليست لغة قريش ، إذ أن اللغة الفصحى لا يمكن أن توصف على أنها لغة هذه القبيلة أو تلك ؛ لأن فيها خصائص للغات عربية متعددة ، وهذه اللغات تقترب إلى حد بعيد من الفصحى التي أخذت من لغة تميم ومن غيرها من لغات القبائل الفصيحة

---

[٧] ينظر : م.ن : ١/ ٢٠١ ، وكتاب الفصيح : ص٦٢ (مقدمة المحقق) ، والتعريفات : ص٩٥، الذي ركز فيه مؤلفه على تعريف البلاغيين للفصاحة، وقد عرف القزويني الفصيح من الكلام بأنه ((ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له، بعد أن لا يكون ساقطا ، ولا للفظ العامة مشبها))/الإيضاح في علوم البلاغة :١/ ٧٢.

[٨] ينظر:الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب : ص٧٤ وما بعدها. والصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : ص٢٨ ، وفقه اللغة لوافي : ص١١٢ ، ودراسات في فقه اللغة : ص١٠٩ .

كما أخذت من لغة قريش إلا أن ما أخذته من لغة قريش كان أكثر[٩] ، فالفصحى على هذا الأساس لغة العرب جميعا ، ولذلك وصفت باللغة الموحدة ، والمشتركة ، وعرفت اصطلاحا بأنها ((تلك اللغة التي عرفها العرب أنفسهم لغةً رسميةً : لغة الصحراء قبل أن تتفرق القبائل إثر الفتح ، وهي التي كانت تتمثل بخاصة في الشعر الذي ازدهر قبل بعثة محمد "صلى الله عليه وسلم" ، ثم استمر ازدهارها في عصر صدر الإسلام ، حتى نهاية الدولة الأموية ، كما أنها تتمثل من جهة أخرى في القرآن.وقد كانت هذه اللغة الموضوع الوحيد الذي أُفْرِغَت له البحوث النحوية واللغوية التي قام بها العلماء العرب تلكم هي (اللغة الفصحى))[١٠] ، وتوصف لغات القبائل العربية بأنها فصيحة أو غير فصيحة ، بمقدار قربها من العربية الفصحى لغة القرآن الكريم أو بعدها عنها.

وسيكون ما انتهيت إليه في هذا المهاد النظري منطلقا لي ومعتمدي في دراسة إشكاليةِ مُصْطَلَحَي اللُّغَةِ الفَصِيحَةِ واللُّغَةِ الفُصْحى في تراثِنا اللُّغويِّ .

---

[٩] ينظر : الوجيز في فقه اللغة : ص١٠٣ ، وأفصحية لهجة قريش بين النفي والإثبات : ٤٨٨ ، واللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصف، والأحكام : ص٤ .

[١٠] العربية الفصحى:٣٠.

المبحث الأول

الإشكالية لدى علمائنا الأوائل حتى نهاية القرن الرابع للهجرة

أثبت الاستقراء أن علماءنا الأوائل من المعجميين واللغويين لم يستعملوا مصطلح اللغة الفصيحة ، إلا في (ثلاثة وعشرين موضعا) ـــ في كل ما أطلعت عليه من كتبهم ـ ، (ستة مواضع) منها وردت في "جمهرة اللغة"[١١] لابن دريد(ت٣٢١هـ) و(خمسة مواضع) وردت في "تهذيب اللغة"[١٢] للأزهري(٣٧٠هـ) ، و(ثلاثة مواضع) وردت في "الخصائص" لابن جني(ت٣٩٢هـ) ، [١٣] و(أربعة مواضع) وردت في "تاج اللغة وصحاح العربية" لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت حدود ٤٠٠هـ)[١٤] ، في حين لم يرد هذا المصطلح في "كتاب العين" ، للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ولا في "كتاب الجيم" لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦هـ) ، ولا في كتاب "المحيط في اللغة " للصاحب بن عباد (٣٨٥هـ) .

كما أثبت الاستقراء أن معظم اللغويين والمعجميين الأوائل لم يستعملوا مصطلح الفصحى فيما ألفوه من الكتب ، فقد تهيأ لي أن أبحث عن هذا المصطلح في معجمات : "العين" للخليل و"الجيم" لأبي عمرو الشيباني ، و"جمهرة اللغة" لابن دريد ، و"تهذيب اللغة للأزهري و"المحيط

---

[١١] ينظر :١/٢٦٠ـ٢٦١، ٣١٩، ٤٥٧، ٦٠٥، و٢/٨٠٠ ، ٨٠٧ .

[١٢] ينظر : ١/٥١، و٧/٧٨، و١٠/١٩٣، و١٢/٢٧٧، و١٥/ ٢٧٦.

[١٣] ينظر : ٢/٢٦، ٢٩، ٢١٩.

[١٤] ينظر : ٣/٩٧٨، و٥/١٧٤٨، و٦/٢١٦٧.

في اللغة" للصاحب بن عباد و"مقاييس اللغة" لأحمد بن فارس و"تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري ، فلم أجد من الذين تقدم ذكرهم من جاء على ذكر هذا المصطلح ، حتى في أثناء كلامهم على مادة "فصح" ، كما بحثت عن هذا المصطلح في كتب اللغة[١٥] المشهورة ككتاب "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ، وكتاب الفصيح ، لأبي العباس ثعلب(ت٢٩١هـ) ، وكتاب "الخصائص" لابن جني ، وكتاب "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" لأحمد بن فارس ، فلم أجد فيها ذكرا لهذا المصطلح ، إلا في موضعين :

الأول : يمثله تلميح ثعلب إلى مصطلح الفصحى في مقدمة "كتاب الفصيح" المتمثل بقوله : ((هذا كتاب اختيار فصيح الكلام ، مما يجري في كلام الناس وكتبهم ، فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها ، فأخبرنا بصواب ذلك ، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فاخترنا أفصحهن[١٦]...)) ، فالملاحظ أن ثعلبا قال: " فاخترنا أفصحهن "، أي يعني أفصح اللغات ، أو لنقل الفصحى منها ، ولم يقل فاخترنا الفصيحة منها؛ لأن اللغات غير المختارة فصيحة أيضا في نظره ونظر غيره .

---

(١٥) لعل هذا الحكم ينسحب على كتب النحو أيضا ، إذ تهيأ لي أن أستقري "الكتاب" لسيبويه (ت١٨٠هـ) ، فلم أجد فيه ذكرا لهذا المصطلح أيضا.

(١٦) كتاب الفصيح : ، ص٢٦٠ (مقدمة المؤلف) .

والثاني: يمثله تصريح ابن جني بالمصطلح في كتابه " الخصائص" ، معبرا به عن مفهوم الفصحى الذي ذكرناه آنفا[١٧] ، كما سيأتي. وهذا يعني أن هذا المصطلح لم يستعمل بلفظه الصريح فيما أطلعت عليه من المعجمات وكتب اللغة حتى نهاية القرن الرابع للهجرة ماعدا نص الخصائص المشار إليه.

إن عدم استعمال مصطلحي الفصيحة والفصحى من لدن معظم المعجميين وعلماء اللغة الأوائل أو ندرة استعماليهما لا يعني عدم وضوح مفهوميهما لديهم ، فسياق النصوص فيما أوردوه من الكلام المتضمن هذين المفهومين يدل على وعي كامل لمستوييهما ، لكن الباحث يعزو ذلك إلى أن مصطلحي الفصيحة والفصحى كانا على ما يبدو غير شائعين ، ولما يستقرا بعد .

وعلى الرغم من أن عدم استعمال المصطلحين من لدن معظم المعجميين وعلماء اللغة الأوائل لا يعد إشكالية في حد ذاته ، لوضوح مفهوميهما ـ كما ذكرنا ـ فقد ترتب على ذلك خلط بين المصطلحين في الاستعمال تارة ، وعدول عنهما ، باستعمالهم مصطلحات أخر معادلة لهما تارة أخرى ، وهنا تكمن إشكالية مصطلحي الفصيحة والفصحى في تراثنا اللغوي . وفي ضوء ما تقدم توصل هذا البحث إلى أن للإشكالية وجهين اثنين هما :

---

[١٧] ينظر : الخصائص:١/٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وسيرد النص كاملا في ص٧ من هذا البحث .

الوجه الأول : الخلط بين مصطلحي الفصيحة والفصحى.

الوجه الثاني : تعدد المصطلحات الدالة على مفهومي الفصيحة و الفصحى .

وفيما يأتي توضيح لوجهي الإشكالية:

الوجه الأول : الخلط بين مصطلحي الفصيحة و الفصحى:

يعد هذا الوجه أبرز وجهي الإشكالية ، إذ وجدت المعجميين وعلماء اللغة يكثرون من استعمالهم "مصطلح اللغة الفصيحة" دالا على " مصطلح اللغة الفصحى" ، وفي هذا خلط بين المفهومين ، ومما يؤكد حدوث خلط بين المصطلحين النصوص الآتية :

ـ قال ابن دريد : ((الخَصْم : المخاصِم والمخاصَم ، وهما خصمان ، أي كل واحد منهما خصم صاحبه لأنه يخاصمه . وفلان خَصْمي ، الذكر والأنثى والواحد والجميع فيه سواء ، وهي اللغة الفصيحة . وفي التنزيل : "وهل أتاك نبأُ الخَصْم إذ تسوَّروا المِحراب"[١٨] ، فهذا في معنى الجمع ، يعني الملائكة الذين دخلوا على داود ففزع منهم.))[١٩]

ـ وقال الأزهري : ((وقال الفرَّاء: يقال : سَخِرْتُ منه ولا تَقُلْ : سَخِرْتُ به ، قال الله : " لا يسخر قوم من قوم"[٢٠]. وقال ابن السِّكِّيت : تقول : سَخِرْتُ من فلان ، فهذه : اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ ، قال الله :

---

(١٨) سورة ص : الآية ٢١ .

(١٩) الجمهرة : ١/٦٠٥.

(٢٠) سورة الحُجرَات : الآية ١١.

" فيسخرون منهم سخر الله منهم "[21] ، وقال جلّ وعزّ[22] : "إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم"))[23]

ـ وقال ابن جني : ((وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول : إنه يحكى كلام أبيه وسلفه ، يتوارثونه آخر عن أول ، وتابع عن متَّبَع. وليس كذلك أهل الحضر؛ لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة . غير أن كلام أهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العرب في حروفهم ، وتأليفهم إلا أنهم أخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح)) [24] .

ـ وقال الجوهري : ((والضَّلال والضَّلالة: ضدُّ الرّشادِ . وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ . قال تعالى : [25] " قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّما أَضِلُّ على نفسي " فهذه لغة نجد ، وهي الفصيحة . وأهل العالية يقولون: ضَلِلْتُ بالكسر أَضَلُّ)) .[26]

إن من ينعم النظر في هذه النصوص يجد فيها خلطا واضحا بين مصطلحي اللغة الفصيحة واللغة الفصحى ، فمصطلح اللغة الفصيحة في كل تلك النصوص جاء معادلا لمصطلح اللغة الفصحى ، إما لورودها في

---

(21) سورة التّوبَة : الآية ٧٩.

(22) سورة هُود : الآية ٣٨ .

(23) التهذيب : ٧/٧٨.

(24) الخصائص : ٢/٢٩.

(25) سورة سبأ : الآية ٥٠ .

(26) الصحاح : ٥/١٧٤٨.

القرآن الكريم كما في نصوص الجمهرة والتهذيب والـصحاح[٢٧] ، أو لأن السياق يدل على أنها جاءت بمعنى اللغة الفصحى كما في نص ابن جني .

ـ وممن خلط بين مصطلح الفـصيح ، والمـصطلح التفاضـلي المعياري" أفصح" ابن فارس وذلك في قوله : ((الزاء والواو والجيم أصلٌ يدل على مقارنة شيء بشيء من ذلك الزوج : زوج المرأة ، والمرأة زوج بعلها ، وهو الفصيح . قال الله جل ثناؤه [٢٨] : "اسـكن أنـت وزوجـك الجنة"))[٢٩] ، فابن فارس نعت ما ورد في القـرآن بالفـصيح ، مـع أن مصطلح " الأفصح " أنسب للسياق .

ـ ومن أبرز الأمثلة على الخلط بين المصطلحين قول أبي جعفـر النحاس المتوفى سنة (٣٢٨هـ) عن لغة الحجاز إنها اللغـة : ((القديمـة الفصيحة))[٣٠] ، فالنحاس عد لغة الحجاز هاهنا اللغة الفصيحة ، ووصفها بالقديمة ، في حين جاء ابن جني(٣٩٢هـ) بعـده ليقـرر أن لغـة أهـل الحجاز ، هي (اللغة الفُصْحى القُدْمى.) ، جاء ذلك في كتابه "الخـصائص في "باب في مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرا وحكمـا لا زمانـا ووقتـا" ، ويتمثل ذلك بقوله: ((واعلم مع هذا أن بعض ما ندعي أصليَّته مـن هـذا

---

(٢٧) أود أن أنوه هاهنا بأن الفيومي قد ذكر هذا النص لكنه استعمل مصطلح الفصحى بدلا من الفصيحة وهو الأدق كما سأوضح هذه المسألة في المبحـث الثـاني مـن هذا البحث .

(٢٨) سورة البقرة : الآية ٣٥ .

(٢٩) المقاييس : ٣/٣٥ .

(٣٠) إعراب القرآن : ٣/٣١٣ ، وينظر: اللغة العالية عند ابـن دريـد : المفهـوم ، والوصف ، والأحكام : ص٢.

الفن قد يُنْطَقُ به على ما ندَّعيه من حاله – وهو أقوى الأدلة على صحة ما نعتقده من تصور الأحوال الأُول – وذلك اللغتان تختلف فيهما القبيلتان كالحجازية والتميمية ؛ ألا ترى أنا نقول في الأمر من المضاعف في التميمية – نحو شُدّ وضَنّ وفِرّ واستَعِدّ واصطبّ يا رجل ، واطمئنّ يا غلام –: إن الأصل اشدُدْ ، واضنَنْ ، وافرِرْ ، واستعدِد ، واصطبِب ، واطمأْنِنْ ، ومع هذا فهكذا لغة أهل الحجاز ، وهي اللغة الفُصْحى القُدْمى.))[٣١] فابن جني عد لغة الحجاز هاهنا اللغة الفصحى ، ووصفها بالقُدْمى ، وعزا ذلك إلى ورودها في القرآن ، حين قال : ((ويؤكد ذلك قول الله سبحانه: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ } أصله استطاعوا فحذفت التاء لكثرة الاستعمال ولقرب التاء من الطاء وهذا الأصل مستعمل ألا ترى أن عقيبه قوله تعالى {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}))[٣٢] ، وهذا أحد وجهي إشكالية مصطلحي الفصحى والفصيحة ، فالقارئ بإزاء هذا الخلط بين المصطلحين لا يدري إن كانت لغة الحجاز فصحى ، أم فصيحة ، قُدْمَى أم قديمة ، أم أن النحاس استعمل اللغة الفصيحة معادلة للغة الفصحى ، والقديمة معادلة للقدمى ، أم أن ابن جني استعمل المصطلح بلفظه الصريح الدقيق ، لكن الباحث يرى أن وصف ابن جني اللغة الحجازية بالفصحى هو الأدق

---

(٣١) الخصائص : ٢٥٩/١ ـ ٢٦٠، ومن الجدير بالذكر هاهنا أن ابن جني قد وصف اللغة الحجازية في مكان آخر من الخصائص : ٣٢٥/٢ بقوله : ((وهي اللغة الحجازية القوية .)) فمصطلح اللغة الحجازية القوية هو أقرب إلى مصطلح اللغة الفصحى في هذا النص منه إلى اللغة الفصيحة ، والله أعلم .

(٣٢) م.ن : ٢٥٩/١ ـ ٢٦٠.

لورودها في القرآن ، ومما يؤكد ذلك أيضا نص ورد في كتاب سيبويه وهو قوله : ((والحجازية هي اللغة الأولى القدمى))[٣٣] ، وليس ببعيد أن يكون النحاس وابن جني قد أخذا كلام سيبويه عن طريق الرواية الشفوية ، وحدث فيه ما حدث من اختلاف في ألفاظه ، فأثر ذلك في دلالة المصطلح.

وقد يظن ظان أن مصطلح "اللغة الفصيحة" ، في هذه النصوص وغيرها قد استعمل وصفا للغات القبائل العربية ، ولم يستعمل وصفا للغة الفصحى أو المشتركة أو الموحدة كما يسميها المحدثون في زماننا ، أقول لمن يظن مثل هذا الظن :لو كان قصد المعجميين وعلماء اللغة بهذا المصطلح لغات القبائل العربية لجاؤوا بالمصطلح نكرة ، أي لقالوا : "لغة فصيحة" بتنكير الصفة والموصوف ، حينها لا يكون هناك خلط بين المصطلحين ، أما وأنهم قد استعملوا المصطلح بصيغة التعريف " اللغة الفصيحة" ، فهذا دليل على أن الأدق أن يستعملوا مصطلح" اللغة الفصحى" كما هو واضح في كل النصوص التي جيء بها للدلالة على الخلط بين المصطلحين .

مما لاشك فيه أن هذا الخلط في استعمال مصطلح اللغة الفصيحة دالا على مصطلح اللغة الفصحى يولد إشكالية كبيرة تربك قارئ هذه الكتب والمعجمات ، و تنبئ عن وجود اضطراب لدى أصحابها من جهة ، وتؤكد ما ذهبنا إليه من حيث أن المصطلح غير مستقر لديهم ، ولمّا يتبلور بعد من جهة أخرى .

---

(٣٣) كتاب سيبويه : ١٨٧/١.

الوجه الثاني : تعدد المصطلحات الدالة على مفهومي الفصيحة والفصحى :

لم أعثر على نصوص كثيرة تدل على استعمال المعجميين واللغويين مصطلحات يدل السياق على أنها معادلة لمصطلح اللغة الفصيحة ما عدا ما وجدته من نصوص استعملوا فيها مصطلحي "اللغة القوية" ، واللغة الجيدة ، في مواضع معدودة في كل ما استقريته من كتبهم ومعجماتهم ، وعلى العكس من ذلك وجدتهم يستعملون مصطلحات معادلة للفصحى في مواضع كثيرة ، أمثال استعمالهم مصطلح (كلام العرب)، و (اللغة العالية) وفي مواضع أقل (لغة العرب) ، أو أنهم يستعملون المصطلحات المعيارية التفاضلية أمثال (أفصح) ، و(أكثر) ، و(أعلى) .

وفيما يأتي توضيح لهذه الإشكالية بكل تفرعاتها :

أولا : المصطلحات المعادلة للفصيحة:

١ــ لغة قوية :

ومن أمثلتها قول ابن جني الآتي الذي ذكره في باب : العربي الفصيح ينتقل لسانه : ((اعلم أن المعمول عليه في نحو هذا أن تنظر حال ما انتقل إليه لسانه . إن كان إنما انتقل من لغته إلى لغة أخرى مثلها فصيحة وجب أن يؤخذ بلغته التي انتقل إليها كما يؤخذ بها قبل انتقال لسانه إليها ... فإن كانت اللغة التي انتقل لسانه إليها فاسدة لم يؤخذ بها ويؤخذ بالأولى حتى كأنه لم يزل من أهلها ، وهذا واضح ، فإن قلت : فما يؤمنك أن تكون كما وجدت في لغته فسادا بعد أن لم يكن فيها فيما علمت أن يكون فيها فساد آخر فيما لم تعلمه ... إن اتجه هذا انخرط عليك منه ألا تطيب نفسا بلغة وإن كانت فصيحة مستحكمة . فإذا كان أخذك بهذا مؤديا إلى هذا

رفضته ولم تأخذ به وعملت على تلقي كل لغة قوية معربة بقبولها واعتقاد صحتها))[٣٤] ، فالظاهر من السياق أن قول ابن جني : " كل لغة قوية معربة" ، يعادل قوله : " كل لغة فصيحة معربة". ولا يبعد أن يأتي هذا المصطلح معادلا للغة الفصحى ، والفيصل في ذلك هو السياق الذي يرد فيه .[٣٥]

٢ـ لغة جيدة :

استعمل علماؤنا القدماء هذا المصطلح معادلا لمصطلح "اللغة الفصيحة" ، ومن الأمثلة على ذلك :

*قال الأزهري[٣٦] : ((قلت :ومن العرب من يقول :طاع له يطوع طوْعا فهو طائع بمعنى أطاع أيضا.وطاع يَطاعُ لغةٌ جيدة))[٣٧]. والظاهر من السياق أن قوله : لغةٌ جيدة :يعني لغة فصيحة؛ لأن المصطلح جاء نكرة ،

---

(٣٤) الخصائص : ١٣/٢.

(٣٥) ومن أمثلة ذلك قول ابن جني في الخصائص : ٣٢٥/٢ : ((ألا ترى أن ما كان من تكسير فَعِيل وفَعُول وفَعالٍ وفِعالٍ مما لامه معتلة لا يأتي على فُعُل . فلذلك لم يقولوا في كِساءٍ : كُسُوٌ ولا في رِداء : رُدْيٌ ولا في صبيّ : صُبُوٌ ولا نحو ذلك لأن أصله فُعُل . وهي اللغة الحجازية القوية)) ، فمصطلح اللغة الحجازية القوية هو أقرب إلى مصطلح اللغة الفصحى في هذا النص منه إلى اللغة الفصيحة ، كما يفهم من السياق .

(٣٦) ورد هذا المصطلح في التهذيب في أربعة عشر موضعا ، جاء في قسم منها معادلا للفصيح وفي قسم آخر جاء معادلا للفصحى.

(٣٧) م.ن : ١٠٦/٣.

بتنكير الصفة والموصوف ، فلو قال :اللغة الجيدة لقصد الفصحى، كما أوضحت ذلك آنفا.

*وقال الجوهري : ((قال الفراء يقال: مرَّ بى فلان فما عَرَضْتُ لهُ وما عَرِضْتُ له ، لغتان جيدتان))[٣٨] ، ولا يبعد أن يأتي هذا المصطلح معادلا للغة الفصحى ، والفيصل في ذلك هو السياق الذي يرد فيه.[٣٩]

ثانيا : المصطلحات المعادلة للفصحى : ترتب على عدم استعمال معظم علمائنا الأوائل مصطلح اللغة الفصحى بلفظه الصريح عدولهم عنه ، باستعمالهم مصطلحات أخر مخالفة له باللفظ و معادلة له بالمفهوم ، وها نحن ننسق هذه المصطلحات مرتبة بحسب كثرة استعمالها في كتب اللغة والمعجمات ، وكما يأتي :

١ــ مصطلح كلام العرب :

ويقصد به المصطلح المعادل للغة العربية الفصحى ، وهو الكلام الذي بقي محافظًا على سلامته وخلوصه ونقائه وأصالته ، وسلم من تأثيرات اللحن الذي نشا نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخر ، ويمثله من اللغة المحفوظة (المكتوبة) القرآن الكريم ، وكلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وشعر العرب قبل الإسلام ، وكلام فصحاء العرب ، والشعر الإسلامي ، ويمثله من اللغة المسموعة (المحكية) لغة الأعراب من البدو ، ولغة القبائل العربية المشهود لها بالفصاحة.

---

(٣٨) الصحاح : ١٠٨٢/٣.

(٣٩) ومن أمثلة ذلك قول الجوهري في الصحاح ٢٤٩٧/٦: ((وأمليت الكتاب أُملى ، وأمللته أُملُّهُ ، لغتان جيدتان جاء بهما القرآن)) ، وينظر : التهذيب : ١٨٩/٧.

ومن مظاهر اعتداد المعجميين بكلام العرب أنهم جعلوا منه مقياسا للصواب والخطأ ، فما جاء مطابقا لمستواه الصوابي من الألفاظ واللغات والاستعمالات اللغوية والصيغ والتراكيب عدوه صحيحا ، وما خالفه ، أو خرج عنه ، عدوه خطأ ، يتساوى عندهم في ذلك المحفوظ والمسموع منه .

ومثلما حكموا المحفوظ من كلام العرب ، وجعلوه فيصلا بين ما يقبل ويرفض ، جعلوا المسموع منه (المحكي) معيارا لصحة الألفاظ أيضا . فما طابق هذا المسموع عدوه صوابا ، وأنكروا ما خالفه . كما أكدوا صراحة أن المسموع أولى من غيره . ورأوا وجوب الأخذ به . فقالوا: (يجب أن يؤخذ بالمسموع من العرب)[٤٠] ، وجعل المعجميون لكلام العرب معايير كثيرة[٤١] يتصل قسم منها بما حول اللفظ من اعتبارات الزمان والمكان والقبيلة والصحة ، ويتصل الثاني بذات اللفظ صوتا وبنية ، ولسنا بصدد الكلام على هذه المسألة في بحثنا هذا ؛ لأننا فصلنا الحديث عنها في بحث سابق لنا. [٤٢]

إن نماذج مصطلح "كلام العرب" في المعجمات أكثر من أن تحصى؛ لذا ارتأى الباحث أن يورد منها ما يناسب حجم هذا البحث ، وكما يأتي :

---

(٤٠) جمهرة اللغة : ٧٦٢/٢.

(٤١) ينظر: من إسرار اللغة : ص١٢٩، والحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية:ص ٢٧١ ، والاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مائتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس : ص١٨، وقضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي : ص٥٧ وما بعدها ، وأصالة اللغة العربية وعلومها : د.إبراهيم عبد الله رفيدة ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٦، السنة الرابعة ١٩٨٢ : ص٩ وما بعدها .

(٤٢) ينظر :النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة: ص ٨٨ــ ١٠٦،

ـ قال الخليل : ((وكلامٌ مُولَّد: مُستَحدَث لم يكن من كلام العرب))[٤٣]

ـ **وقال ابن دريد** : ((ويقال للفرس : أقْدِمْ ، زجر له كأنه يؤمر بالإقدام ؛ هكذا كلام العرب ،))[٤٤] ، ومثله قول ابن دريد أيضا : ((قال الأصمعي: الطّعْن بالرُّمح ، والطَّعَنان باللسان؛ هكذا كلام العـــرب))[٤٥] . أي هكــذا اللغة الفصحى .

ـ **قال الأزهري** : ((أبو عبيد عن أبـــي زيـــد قـــال : البَـــوَارِحُ الـــشَّمْأَلُ في الصيفِ خاصةً . قلت وكلامُ العرب الذين شـــاهَدْتُهم علـــى مـــا قـــالَ أبو زيد)) .[٤٦]

ـ **قال الجوهري** : ((والفصيد: دم كان يجعل في معى من فصد عرق ثم يشوى ، يطعمه الضيف في الأزمة. وفي المثـــل[٤٧] : " لـــم يحـــرم مـــن فصد له " أي من فصد له البعير. وربما سكنت الصاد منه تخفيفـــا فتقلـــب زايا فيقال : " فزد له ". وكل صاد وقعت قبل الدال فإنه يجوز أن تـــشمها رائحة الزاى إذا تحركت ، وأن تقبلها زايا محضا إذا سكنت . وبعـــضهم يقول: من قصد له " بالقاف ، أي من أعطى قصدا ، أي قليلا وكلام العرب بالفاء)) ، أي اللغة الفصحى بالفاء. [٤٨]

---

(٤٣) العين : ٧١/٨.

(٤٤) الجمهرة : ٦٧٥/٢ ـ ٦٧٦.

(٤٥) م . ن : ٩١٧/٢.

(٤٦) التهذيب : ١٩/٥.

(٤٧) ينظر المثل في مجمع الأمثال :١٩٢/٢، المثل ذو الرقم ٣٣٣٦.

(٤٨) الصحاح :٨٠/٣.

وإذا ما خرج الكلام على مقاييس كلام العرب ، نفـوا عنـه صـفة الفصاحة مستعملين مصطلح "ليس من كلام العرب"من ذلك قول الخليـل: ((ورجلٌ مُشَعوذٌ ، وفعله: الشَّعْوَذَة ، ويقال: مشعبذ والشَّعْوَذيّ: كلمة ليست من كلام العرب وهي كلمة {عامية}[٤٩]))[٥٠]. وقوله أيـضا: ((العِلَّـوْشُ : الذئب بلغة حمير ، وهي مخالفة لكلام العرب ، لأن الشينات كلّهـا قبـل اللاّم))[٥١]. وقد أكثر علماء اللغة والمعجميون من ذكر مصطلح" ليس في كلام العرب" إلى الحد الذي جعل ابن خالويه (٣٧٠هـ) يؤلف كتابا قائمـا برأسه أختار له عنوان "ليس في كلام العرب"[٥٢]. وهو المصطلح المقابـل لـ(كلام العرب)أو اللغة الفصحى .

٢ـ مصطلح اللغة العالية :

تكرر هذا المصطلح كثيرا في المعجمات العربية ، وهو يـأتي عنـد أصحابها معادلا للغة الفصحى ، وغالبا ما تذكر فيها مقابل اللغة العالية لغة أقل علوا منها ، أو لغة ليست بالعالية من باب استصحاب النقيضين ، ويعد ابن دريد من أكثر المعجميين استعمالا لهذا المصطلح[٥٣] ، ومـن أمثلـة استعماله مصطلح اللغة العالية معادلا للغة الفصحى قوله : ((والنهر بفتح

---

(٤٩) في الأصل "عالية"، والصواب ما ثبتناه ، إذ لا يستقيم الكلام إذا قلنا :لـيس مـن كلام العرب وهي كلمة عالية .

(٥٠) العين: ١/٢٤٤.

(٥١) م.ن: ١/٢٥٦.

(٥٢) قال ابن خالويه في كتاب ليس في كلام العرب : ص١٧ : ((لـيس فـي كـلام العرب إنما هو على ما أحاط به حفظي وفوق كل ذي علم عليم)) .

(٥٣) ينظر : النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة : ص٥٥ .

الهاء اللغة الفصيحة العالية ، وأصل النَّهر السَّعَة والفُسحة . وفسر قوله عز وجل في جَنَّاتٍ ونَهَرٍ" ، في ضوء وفُسحة ، وهو كلام المفسرين . واللغة توجب أن يكون نهر في معنى أنهار ، كما قال جلّ ثناؤه: "يُخرجُكم طِفْلا" ، أي أطفالا ، والله أعلم والنَّهار مأخوذ من ذلك إن شاء اللهّ.)) (٥٤) ، ومن أمثلة مجيء مقابل اللغة العالية غير فصيح قول ابن دريد أيضا ((وقد قالوا : فَرْحان وفرحانة ، ولا أحسبها لغة عالية ، وقالوا : امرأة فَرْحى))(٥٥) ، ومما يدل على أن "فرحانة" ليست باللغة الفصيحة قول ابن سيدة عنها: ((وامرأة فرحة وفرحى وفرحانة ولا أحقه))(٥٦) ، ولسنا مع ما ذهب إليه الدكتور هادي نهر بعده اللغة العالية ((أعلى مراتب الفصحى))(٥٧) ؛ لأن أعلى مراتب الفصحى هي لغة القرآن الكريم ــ كما سيأتي ــ ، ولأن اللغة العالية قد تأتي وصفا للغة القرآن ، أو قد تأتي أحيانا وصفا لغيرها ، أي أنها قد تأتي معادلة للفصيحة تارة ، ومعادلة للفصحى تارة أخرى ، والسياق الذي ترد فيه هو الفيصل في ذلك .

---

(٥٤) الجمهرة : ٨٠٧/٢ .

(٥٥) الجمهرة: ٥١٨/١.

(٥٦) المحكم :٤٠٤/٢.

(٥٧) اللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصف ، والأحكام : د. هادي نهر ، من أبحاث المؤتمر العلمي السابع لوحدة الدراسات العمانية ، بعنوان ابن دريد الأزدي : ص٤ .

٣ــ مصطلح أفصح :

وقد أكثر المعجميون[٥٨] من استعمال هذا المصطلح معادلا للغـــة الفصحى[٥٩] ، ومن أمثلة اســتعمالهم هــذا المــصطلح مفــردا معــادلا لــ مصطلح "الفصحى" قول الخليل : ((سع : السَعْسَعَةُ : الاضطرابُ مــن الكِبَر تَسَعْسَعَ الإنسان : كَبِرَ وتولَّى حتى يَهْرَم ، قال رؤبة :

قالَتْ ولم تَأل به أن يَسْــمَــعَــا   يا هِنْدُ ما أَسْرَعُ ما تَسَعْسَــعَــا

من بعدِ أنْ كان فتىً سَرَعْرَعَا

أي شابا قويا . وعن عُمر: أنَّ الشَّهْر قد تَسَعْسَعَ فلو صُمْنا بقيتَــه. ويروى : تَشَعْشَعَ والأوّل أصــحُّ وأفْــصحُ))[٦٠] ، فقــول الخليــل الأول أفصح ، يعني أن الثاني فصيح أيضا ، ومما يؤكد أن مقابل مصطلح أفصح هو الفصيح تأكيدا لا يقبل اللبس قول الجوهريِ الآتي: ((وحَجْرُ الإنــسان وحِجْرُهُ ، بالفتح والكسر ، والجمع حُجورٌ . والحِجْر: الحرام يكسر ويضم

([٥٨]) ممن أكثر من استعمال هذا المصطلح معادلا للفصحى الجوهري ، ينظر علــى سبيل المثال : الصحاح:
١/٢١٩ ، ٢٣٦، ٣١٣ ، و٢/٤٤٠ ، ٤٨٥ ، ٥٥٣ ، و٣/١١٦٥ ، ١٢١٦ ، ١٢٨٦، و٤/١٤٢١، ١٦٩٨ ، و٥/ ١٨٢٦ ، ٢٠٨٢ ، و٦/ ٢١٨٣ ، ٢٤٩٧ .

([٥٩]) لأن أسـم التفــضيل مــن الفعــل فــصح (أفــصح) ، وهــو اســم مــشتق على وزن (أفْعَل) ، ومؤنثــه (فــصحى) علــى وزن (فُعلــى) ، ينظــر : الصرف الوافي : ١١١ .

([٦٠]) العين : ١/٧٤ ــ ٧٥.

ويفتح ، والكسر أفصح. وقرئ بهن[61] قوله تعالى : "وحَرْثٌ حَجْــرٌ"[62].
ويقــول المــشركون يــومَ القيامـــة إذا رأَوْا ملائكـــة العــذاب: "حِجْــرا مَحْجورا"[63] ، أي حراما محرَّم ، يظنون أنَّ ذلــك يــنفعهم كمــا كــانوا يقولونه في الدُّنيا لمن يخافونه في الشهرالحرام[64])). فقـــراءةُ (حَجْـــرٌ) بالحركات الثلاث دليل على أن لغتي الفتح والضم فصيحتان ، لكن الكسر أفصح ؛ ولهذا جاء رسمُ المصحف بها في الآيتين .

ومن أمثلته قول الخليل أيضا :((وأمّا قَولُه:" فلا اقْتَحَمَ العقبــةَ"[65] فــ (لا) بمعنى (لم) كأنّه قال: فلم يَقْتَحِمِ العَقَبة. ومثله قوله عزّ وجلّ:" فلا صدّق ولا صلّى"[66] ، إلاّ أنّ (لا) بهذا المعنى إذا كُرِّرت أَفْصَحُ منهــا إذا لم تُكَرَّرْ)) [67]

ومن الأمثلة الأخر على استعمال مصطلح أفصح معادلا لمصطلح "الفصحى قول الجوهري: ((الشُكْرُ : الثناء على المحسنِ بما أَوْلاكَهُ مــن

([61]) ممن قرأها بالفتح (حَجْرٌ) الحسن وقتـــادة ، وبالـــضم (حُجْـــرٌ) الحـــسن وقتـــادة والأعرج ، / ينظر : معجم القراءات القرآنية مع مقدمة فـــي القـــراءات وأشـــهر القراء : ٢ /٣٢٢ ــ٣٢٣.

([62]) سورة الأنعام ، من الآية / ١٣٨ .

([63]) سورة الفرقان : الآية/٢٢ ، ٥٣.

([64]) الصحاح : ٢ /٦٢٣.

([65]) سورة البلد :الآية / ١١.

([66]) سورة القيامة : الآية/٣١.

([67]) العين : ٨/٢٥٠.

المعروف. يقال : شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له ، وباللام أفصح))[٦٨] ، فمعيار الجوهري أن شكرت له باللام وبالصيغة الفعلية أفصح من شكرته يعزى في نظر الباحث إلى ورود الصيغة الفعلية في القرآن متعدية باللام أكثر من تعديها بغير اللام ، فقد ورد الشكر في القرآن الكريم بالصيغة الفعلية (الماضي ، والمضارع ، والأمر) في اثني عشرة آية تعدى في تسعة[٦٩] منها باللام ، وفي ثلاث منها تعدى بنفسه[٧٠] . وحين ننعم النظر في الآيات التي ورد فيها الشكر بالصيغة الفعلية نلحظ أنه عندما يكون للذات الإلهية أو للذات البشرية (الأبوين) قد أتى متعديا باللام ، وعندما يكون لما يتصل بهم قد أتى متعديا بنفسه[٧١] ، وكأن الأمر صدقة أو تقدمة للنجوى بين يدي الله ليتقبل الشكر ، وللأبوين زيادة في القدر والتشريف بهذا الاقتران الجميل به سبحانه وتعالى.[٧٢]

---

(٦٨) م.ن : ٧٠٢/٢، وللمزيد ينظر : م . ن : ٢٤٤/١ ، ٤١٠/١ ، والجمهرة : ١/ ٦٧ ، والتهذيب ٢٢٩/٢.

(٦٩) ينظر : سورة البقرة / الآيتان ١٥٢ و١٧٢ ، سورة النمل/الآية ٤٠ ، وسورة لقمان : في موضعين من الآية ، ١٢، والآية ١٤، وسورة وسورة العنكبوت / الآية ١٧، وسورة سبا / الآية ١٥ .

(٧٠) ينظر : سورة النحل/الآية ١١٤، سورة الأحقاف / الآية ١٥.

(٧١) هذا ملمح قد نبهت عليه طالبي في الماجستير ناظم محمد مصطفى ، فذكره في رسالته للماجستير التي كنت قد اقترحت عليه عنوانها الذي استقر على "حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن ١٩٧٨ ــ ٢٠٠٣م : ص١٤٠.

(٧٢) ينظر : حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن ١٩٧٨ - ٢٠٠٣م : ص١٤٠.

ومن الأمثلة الأخر على استعمال مصطلح أفصح معـادلا لمـصطلح "الفـصحى قـول الجـوهري أيـضا : ((نَـصَحْتُكَ نُـصْحا ونَـصاحَةً. قال الذبياني[٧٣] :

نَصَحْتُ بني عَوْفٍ فلم يَتَقَبَّلـوا رسولي ولم تَنْجَحْ لديهم وسائلي

وهو باللام أفصح . قال الله تعالى: "وأنْصَحُ لكم"[٧٤]))[٧٥].

وهذا النص يعد حجة قوية على أن لغة القـرآن أعلـى مراتـب (الفصحى) ؛ لأنه على الرغم من أن البيت الشعري هو لأحد شعراء مـا قبل الإسلام ، وهو من شعراء عصور الفصاحة ، وتوصف لغته بالفصحى ، فإن الجوهري حكم على أن لغة القرآن أفصح من لغة النابغة مع أن لغة النابغة تحسب من الفصحى أيضا ، والقارئ يلمح في مفاضلة الجـوهري بين لغة القرآن ولغة النابغة أن للفصحى أكثر من مستوى واحـد. وهـذا يتساوق مع قول ابن خالويه المتقدم الذي نص علـى أن اللغـة إذا وردت فـي القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك .

وفي موضع آخر يستعملون مصطلح أفصح معـادلا للغـة الفـصحى ، ومقياس الأفصحية عندهم لغة الحديث الشريف ، من ذلك قول ابن دريد : ((ويقال: طَهَرَه وطَحَره[٧٦] ، إذا أبعده ، كما يقولون: مَدَهَه ومَدَحَـه[٧٧] ،

---

(٧٣) ينظر : ديوان النابغة الذبياني : ٦٧ .

(٧٤) سورة الأعراف : الآية / ٦٢ .

(٧٥) الصحاح : ١/٤١٠ .

(٧٦) ينظر : كتاب الإبدال : ١ / ٣٢٤ .

(٧٧) ينظر : م.ن : ١ / ٣١٦ .

وأشباه هذا كثير في قلب الهاء حاءً والحاء هاء. وذكروا أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) قال لعمّار: "وَيْهَكَ ابنَ سُمَيَّة " ، فإن كان هـذا الحـديث محفوظا فالحاء إذا قلبت هاءً من أفصح اللغات ، وليس يلزم هذا في كـل موضع إنما يجب أن يؤخذ بالمسموع عن العرب))[٧٨] ، فالأفصح عنـد ابن دريد هاهنا هو ما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي تمثـل لغتـه اللغة الفصحى . وإذا ما أنعمنا النظر في هذه النصوص ، تبين لنا أن هناك مستويين : مستوى فصيحا ، ومستوى آخر أفصح منه .

٤ـ مصطلح أعلى:

وقد يستعملون المصطلح المعياري (أعلى) مفردا معـادلا لمـصطلح الفصحى ، من ذلك قول ابن دريد: ((وجزَّأتُ الشيءَ تجزئَـةً ، إذا فرّقتـه أجزاءً ، والواحد جُزْء ، وقد قالوا: جَزْء ، وهو في التنزيـل مـضموم ، والضمّ أعلى اللغتين))[٧٩] ، فالذي جعل لفظ"جُزء "بالضم أعلى اللغتـين ، هو ورودها في القرآن كما يفهم من قول ابن دريد.وقد يفاضل ابن دريـد بين قراءتين يرى أن إحداهما أعلى من الأخرى دون أن يصرح بسبب ذلك كما فعل في قوله : ((والسَّلْق: مصدر شدّة القول باللسان؛ سـلقه يـسلُقه سَلْقا ، ومنه قوله جلّ وعزّ: "سَلَقوكم بألسنةٍ حِدادٍ"[٨٠] ، بالسين والـصاد ،

([٧٨]) الجمهرة : ٢ / ٧٦٢ .

([٧٩]) م.ن : ٢/١٠٤٠.

([٨٠]) سورة الأحزاب : الآية ١٩ ، والسين قراءة الجمهـور، والـصاد قـراءة ابـن أبي عبلة ، البحر المحيط : ٧ /٢٢٠ .

والسين أعلى.[٨١])) ، وعلى الرغم من عدم تصريحه بسبب كون القراءة السينية هي الأعلى ، فإن له لا محالة أسبابه ، وهذا ما تأكد لدينا بعد التحقيق ، فقد وجدنا أن السين هي قراءة للجمهور ، والصاد هي قراءة لابن أبي عبلة[٨٢] ، فمجيء القراءة عن الجمهور يعني كونها الأكثر والأشهر.[٨٣]

٥ــ مصطلحا أكثر وأفصح :

ووجدت ابن دريد لا يكتفي أحيانا باستعمال مصطلح "أفصح " مفردا معادلا للفصحى ، بل استعمله مقرونا بمصطلح معياري آخر هو مصطلح"أكثر" ، يتمثل ذلك بقوله: ((والعَوّا: نجم من منازل القمر يُمَد ويُقصر ، والقصر أكثر وأفصح.))[٨٤].

٦ــ مصطلحا أفصح وأعلى ، أو أعلى وأفصح :

ومن أنماط استعمالهم مصطلح أفصح إتيانهم به مشفوعا بالمصطلح المعياري "أعلى" ووجدتهم يفاضلون بين لغتين متفاوتتين في مستوى الفصاحة ، فيقولون عن إحداهما إنها "أفصح اللغتين وأعلاهما" ومن أمثلة ذلك قول ابن دريد : ((فلان قَمِنٌ بكذا وكذا وقَمِينٌ به ، أي جديرٌ ، فإذا قلت: هو قَمِنٌ بكذا وكذا قلت: قَمِنان وقَمِنون ، فإذا فتحتَ الميم قلت: قَمَنٌ ،

---

(٨١) الجمهرة : ٨٥٠/٢ .

(٨٢) ينظر : البحر المحيط : ٧ /٢٢٠.

(٨٣) ينظر : النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة : ص٥٥ .

(٨٤) الجمهرة : ١ / ٢٤٣ .

كان الواحد والجميع فيه سواءً ، وهي أفصحُ اللغتين وأعلاهُمــا.))[٨٥] ، وقد يقدمون مصطلح "أعلى "فيقولون" أعلى وأفصح " من ذلك قــول ابــن دريد أيضا :((التُّخْم: واحد التخوم من تخوم الأرض ، عربــي صــحيح ، زعم ذلك قوم وأنشدوا:

أبَنِيَّ التُّخومَ لا تَظلموها إنّ ظلمَ التُّخوم ذو عُقّالِ

وأنكر ذلك قوم فقالوا : التُّخَْم عجميّ معرَّب . والأول أعلى وأفصح))[٨٦] فابن دريد في المثالين جاء بمصطلح أفصح مقرونا بمصطلح معياري آخر هو مصطلح أعلى.

٧ــ مصطلحا أعلى وأكثر :

وقد يأتون بمصطلح "أعلى" مقرونا بمصطلح معياري آخر هو أكثــر ، ومن أمثلة ذلك قول الأزهري : ((وقال الفراء في قول الله جل وعــز[٨٧] : (عَلَى الموسِع قَدَرُه وعَلَى المُقْتِر قَدَرُه) وقرئ قدرُه وقدرُه بالرفع ، ولو نصب كان صوابا على تكرير الفعل في النية ، أي ليعط الموسع قَدَرَه والمَقْتِرُ قَدَرَه . وقال الأخفش : على الموسع قدرُه : أي طاقته.وأخبرني المنذري عن أبــي العباس في قوله : "على المقتر قَدَرُه وقدْرُه" [٨٨]. قال : التثقيل أعلى اللغتــين وأكثر ، ولذلك اختير. قال:واختار الأخفش التسكين ، إنما اخترنــا التثقيــل لأنه اسم وقال الكسائي: يقرأ بالتخفيف والتثقيــل ، وكــل صــواب ، قــال

---

(٨٥) م.ن : ٢ / ٩٧٧.

(٨٦) م.ن : ١ / ٣٨٩.

(٨٧) سورة البقرة :الآية ٢٣٦.

(٨٨) ممن قرأ قدْرُهُ بسكون الدال ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم / ينظــر: البحر المحيط : ٢/٢٣٣، ومعجم القراءات القرآنية :١/٣٢٦ ــ ٣٢٧ .

قَدَر يَقدِر مقدِرة ومَقدَرةً ومَقدُرة وقدرانا وقدارا وقدرة ، كل هذا سمعناه من العرب))[89] .

٨ـ مصطلح لغة العرب :

على الرغم من أن استعمال المعجميين هذا المصطلح كان أقل بكثير من استعمالهم مصطلح "كلام العرب" وغيره من المصطلحات التي ذكرناها ، فإننا وجدنا نماذج منه في معجماتهم ، من ذلك قول الأزهري الآتي : ((أبو عُبيد عن الكسائي والأصمعي وأبي زيد : عايرت المكاييل وعاورتها كقولهم : عيّرتها . وقال أبو الجراح مثله. ذكر ذلك في باب ما خالفت العامة فيه لغة العرب))[90] ، يفهم من هذا النص أن مصطلح "لغة العرب" جاء معادلا لمصطلحي "اللغة الفصحى"و "كلام العرب".

ثالثا : المصطلحات المقابلة للفصحى والفصيحة :

استعمل المعجميون وعلماء اللغة الأوائل مصطلحات مقابلة لمصطلحي الفصحى والفصيحة ، وذلك في أثناء وصفهم الألفاظ التي خالفت مقاييس هذين المصطلحين ، وقد سبق للباحث أن أصلها ومثل لها في بحث سابق له [91] لذا ستقتصر مهمة هذا البحث هاهنا على ذكر أهم هذه المصطلحات مجردة من نصوصها؛وذلك تجنبا للإطالة ، وها أنا أسرد أشهر هذه المصطلحات : ليس من كلام العرب [92] ،

---

(٨٩) التهذيب : ٢٨/٩.

(٩٠) م.ن : ١٠٧/٣.

(٩١) ينظر : النقد اللغوي في معجمات القرن الرابع للهجرة : ٥٧ ــ ٨١ .

(٩٢) ينظر: التهذيب : ٢١٤/١٥.

لغة رديئة.[٩٣] ، لغة شنعاء[٩٤] ، لغة قبيحة ، [٩٥] لغة مرغوب عنهـــا[٩٦] لغة ليست بجيدة[٩٧] .لغة ضعيفة[٩٨] لغة قليلة[٩٩] لغة ليست بالعالية[١٠٠] لغة ليست بالفصيحة[١٠١] ليس بالقوي[١٠٢] ليس بالمأخوذ به[١٠٣] ليس بعربـــي محض[١٠٤] المحدث[١٠٥] المولد[١٠٦].

---

(٩٣) ينظر : الصحاح :١٦١٥/٤.

(٩٤) ينظر : الجمهرة :٤٧٩/١ ، والمحيط في اللغة : ١٨٩/٢.

(٩٥) ينظر : التهذيب: ١٠٨/٣ ، والمجمل : ٥٦٥/٤ .

(٩٦) ينظر : الجمهرة : ٤١٤/١ ، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء : ٦٧١/٢.

(٩٧) ينظر : التهذيب : ٩ /٢٩٥ .

(٩٨) ينظر : ديوان الأدب : ٣ /٢٧٥.

(٩٩) ينظر : الصحاح : ١٨٠٨/٥.

(١٠٠) ينظر : الجمهرة : ٢ /١٠٩٧.

(١٠١) ينظر : التهذيب : ١٨٩/١٠.

(١٠٢) ينظر : الجمهرة : ٦٣/١.

(١٠٣) ينظر : م.ن:٢٩٥/١.

(١٠٤) ينظر : م.ن : ٢ /٧٢٦

(١٠٥) ينظر : المقاييس : ٣ /٣٨٠.

(١٠٦) ينظر : م.ن : ٢٠٥/٣.

المبحث الثاني

الإشكالية لدى علمائنا القدماء منذ نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث عشر للهجرة

أخذ اللغويون والمعجميون باستعمال مصطلح اللغة الفصحى بلفظه الصريح وبمفهومه الاصطلاحي الذي وضحناه في تمهيد هذا البحث ، وذلك ابتداء من الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة ، و استمر فيما تلاه من قرون حتى صار المصطلح أكثر شيوعا من ذي قبل في بداية القرن الثالث عشر للهجرة ، ففي الوقت الذي اقتصر استعماله بلفظه الصريح على موضع واحد طوال أربعة القرون الأول من هجرة نبينا المجتبى"صلى الله عليه وسلم" ، شاع استعماله في القرون التالية ، حتى بلغ عدد المواضع التي ورد فيها (ثمانية وأربعين موضعا).أما مصطلح اللغة الفصيحة فكان استعماله أقل اطرادا من الفصحى ، إذ بعد أن كان مستعملا في (ثلاثة وعشرين موضعا) حتى نهاية القرن الرابع للهجرة ، صار مستعملا في (تسعة وثلاثين موضعا) حتى بداية القرن الثالث عشر للهجرة ، ناهيك عن أن كثيرا من النصوص التي ورد فيها المصطلحان قد وردت في كتب الأوائل من اللغويين والمعجميين.

يتضح مما تقدم أن استعمال هذين المصطلحين قد بقي محدودا ، إذ تبقى المواضع التي ذكرا فيها معدودة إذا ما قيست بعشرات الأجزاء من المعجمات وكتب اللغة ، ومن المعجميين الذين استعملوا المصطلحين في معجماتهم بعد القرن الرابع للهجرة ابن سيده (ت٤٥٨هـ) الذي استعمل مصطلح اللغة الفصيحة في (ثلاثة مواضع) ، نذكر منها قوله : ((الضّلالُ

والضَّلالَةُ ضد الهُدَى ضَلَلت تَضِلُّ هذه اللغة الفصيحةُ وضَلَلْتَ تَضِلَّ ضَلالا وَضلالةً وقال كراعٌ وبنو تميمٍ يقولون ضَلِلْتُ أَضَلَّ وقال اللحيانيُّ أهلُ الحجازِ يقولون ضَلَلتُ أضِلُّ وأهلُ نَجْدٍ يقولون ضَلَلْت أَضَلُّ وقد قرؤوا جميعا (قُلْ إنْ ضَلِلْتُ[107] وضَلَلْتُ))[108] ، قال وكان يحيى بن وَثَّاب يقرأ كلَّ شيءٍ في القرآن ضَلِلْتُ وضَلِلْنَا بكسر اللام ورَجُلٌ ضالٌّ [109]...)) ، يتضح من هذا النص أن ابن سيده لم يكن دقيقا في إطلاقه مصطلح "اللغة الفصيحة" في هذا المقام؛ لأن السياق الذي وردت فيه يجعلها أقرب إلى الفصحى منها إلى الفصيحة هذا من جهة ؛ولأنه قابلها بلغات قبائل عربية فصيحة من جهة أخرى ، وهذا يعني انه قد خلط بين المصطلحين وهذا أحد وجهي الإشكالية لديه ولدى من جاء بعده من المعجميين وعلماء اللغة .

وإذا كان ابن سيده قد ذكر مصطلح اللغة الفصيحة في ثلاثة مواضع ، فإنه لم يذكر مصطلح اللغة الفصحى إلا في موضع واحد في محكمه كله ، جاء ذلك في قوله ((والدِّجْر ، بكسر الدال : اللوبيا ، هذه اللغة الفصحى.وحكى أبو حنيفة الدَّجْر ، والدُّجْر ، بكسر الدال وفتحها ، ولم يحكها غيره إلا بالكسر))[110].

---

(107) ممن قرأها بكسر اللام الأولى الحسن البصري و عبد الرحمن المقري ، وابن وثاب ، ينظر : البحر المحيط ٧/٢٩٢.

(108) أما القراءة بفتح اللام الأولى فهي تمثل الرسم المصحفي ، سورة سبأ : الآية ٥٠.

(109) المحكم : ٨ /١٥٣ ، وينظر : م.ن : ٣ /٢٦٧.

(110) المحكم والمحيط الأعظم : ٥ / ٤٣٤ .

أما الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ) الذي سمى معجمه "أساس البلاغة " فإني لم أجد في معجمه ذكرا للمصطلحين ، وممن استعمل المصطلحين من المعجميين الحسن بن محمد الصغاني المتوفى سنة(٦٥٠هـ) الذي استعمل مصطلح اللغة الفصيحة في خمسة الأجزاء المطبوعة من معجمه "العباب الزاخر واللباب الفاخر" ، في موضعين ، أحدهما يتمثل بقوله : ((مَسِسْتُ الشَّيْءَ -بالكسر- أَمَسُّه مَسّا ومَسِيْسا ومِسِّيْسى -مثال خِصِّيْصى- ، هذه هي اللُّغَة الفصيحة ، وحَكى أبو عُبَيْدَة : مَسَسْتُه -بالفتح- أَمُسُّه -بالضم- ([111]))) . إن عد الصغاني كسر عين الماضي في (مَسِسْتُ) اللغة الفصيحة ، وذكره رواية أبي عبيدة بفتح عين الفعل على أنها لغة في الكسر يدل دلالة واضحة على أن كسر العين يمثل اللغة الفصحى لا الفصيحة كما ذكر ، وهذا أحد وجهي الإشكالية أيضا ، وإذا كان الصغاني قد ذكر مصطلح اللغة الفصيحة في موضعين ، فإنه ذكر مصطلح اللغة الفصحى في أربعة مواضع نذكر منها قوله : ((التَّعْسُ : الهلاك ، وأصله الكَبُّ . وقوله تعالى: (فَتَعْسا لهم)[112] أي فَعِثارًا وسقوطًا. وإذا سقط الساقِط فأُريدتْ به الاستقامةُ قيل : لَعا له : وإذا لم يُرَدْ به الانتعاشُ قيل : تَعْسًا ... وقال الزجّاج : التَّعْسُ في اللغة: الانحطاطُ والعُثُورُ ، قال وقوله تعالى : (فَتَعْسا لهم) يجوز أن يكون

([111]) العباب حرف السين : ٤٢٦ .

([112]) سورة محمد ، من الآية / ٨ .

نصبا على معنى ألزَمَهم الله ، يقال: تَعَسَ يَتْعَسُ– مثال مَنَـعَ يَمْنَـعُ– ، وهذه هي اللغة الفصحى)) . [113]

أما ابن منظور المتوفى سنة (٧١١هـ) ، فإنه ذكر في معجمه "لسان العرب" مصطلح اللغة الفصيحة في ثمانية مواضع ، و ذكر مصطلح اللغة الفصحى في موضعين ، ولا نرى الكلام على إشكالية مصطلحي الفصيحة والفصحى في كتابه ذا جدوى ؛ لأن التوثيق أثبت أن معظم النصوص التي ورد فيها المصطلحان في اللسان منقولة من أصوله الخمسة ، ما عدا نصا واحدا ذكر فيه مصطلح الفصحى ، مع أنه غير مذكور في النص الذي ورد في أصول كتابه ، وهذا النص هو : ((العَزَبُ الذي لا زوجة له ويروى الأعزب ، وهي لغة رديئة ، واللغة الفصحى العَزَب))[114] ، إن عدم ورود مصطلح الفصحى في مادة "عزب" التي وردت في أصول اللسان ، ووروده في نص اللسان يعد دليلا على أن المصطلح صار أكثر شيوعا من ذي قبل ؛ لذا أضافه ابن منظور إلى النص المقتبس من مصادره .

أما الفيومي(ت٧٧٠هـ) الذي إنماز معجمه بصغر حجمه قياسا بغيره من المعجمات الأخر فقد ذكر مصطلح الفصحى في سبعة مواضع ، ثلاثة منها قال عنها : " وبها جاء القرآن" ، منها قوله : ((ضلَّ الرجل الطريق وضل عنه يَضِلُّ من باب "ضرب"ضلالةً زل عنه فلم يهتدِ إليه فهو

([113]) العباب ، حرف السين : ص ٥٦ ـ٥٧.

([114]) اللسان : ٣٠/١١ .

ضالٌّ هذه لغة نجد وهي الفصحى وبها جاء القرآن في قوله تعالى[115] : "قلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نفسي"))[116]. إن هذا النص يقدم لنا دليلا قويا على وجود إشكالية في استعمال مصطلحي الفصيحة والفصحى ، فالفيومي عد صيغة الفعل" ضَلَلْتُ " الفصحى؛ لأن القرآن قد جاء بها ، في حين عدها الجوهري في الصحاح وابن سيده في المحكم " الفصيحة"، مع إشارتهما إلى ورودها في القرآن أيضا ـ كما ذكرنا آنفا ـ ومثلهما فعل ابن منظور عندما نقل النص من أحدهما[117] ، الحق إن السياق اللغوي يرجح ما ذهب إليه الفيومي ؛ وذلك لأن هناك إجماعا على أن اللغة إذا وردت في القرآن هي أفصح مما في غير القرآن .

لكن الفيومي أشكل عليه استعمال مصطلح الفصيحة في نصين هما الوحيدان اللذان ذُكِرَ فيهما هذا المصطلح ، قال في الأول : ((نَصَحْتُ لِزَيْدٍ أَنْصَحُ نُصْحًا ونصيحةً هذه اللُّغَةُ الفصيحةُ وعليها قوله تعالى "إنْ أردتُ أنْ أَنْصَحَ لكُمْ"[118] ، وفي لغة يتعدى بنفسه فيقال نصحته وهو الإخلاص والصِّدقُ والمشورةُ ...))[119] ، وقال في الثاني : ((ونقصته يتعدى ولا يتعدى هذه اللغة الفصيحة وبها جاء القرآن في قوله : "نَنْقُصُها

([115]) سورة : سبأ ، الآية / ٥٠ .

([116]) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : ٢ /٣٦٣ ، وينظر : م.ن : ١/٥٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، و٢/٤٣١ ، ٤٥٣ ، ٦٤٦.

([117]) ينظر : اللسان : ١١ /٣٩٠.

([118]) سورة الأعراف : الآية / ٦٢ .

([119]) المصباح المنير : ٢ / ٦٠٧ .

من أطرافها"[١٢٠] ... وفي لغة ضعيفة يتعدى بالهمزة والتضعيف ، ولم يأت في كلام فصيح))[١٢١] ، فقارئ هذه النصوص سيكون في حيرة من أمره ، فالفيومي عد صيغة "ضَلَلْتُ" الفصحى؛ لأن القرآن قد جاء بها ، ثم يشكل الأمر على القارئ حين يقول عن " نصحت لزيد" هذه اللغة الفصيحة وعليها قوله تعالى ، ثم يزيد الأمر إشكالا عندما أكد أن تعدية الفعل نفسه يمثل اللغة الفصيحة ؛ لأن القرآن جاء بها ، فلا يدري القارئ ولا ندري نحن معه أفصيحة لغة القرآن أم فصحى؟! أم أن المصطلحين مترادفان !! الحق إن في الأمر لإشكاليةً كبرى ، ولا نقول كبيرة؛لأن هناك فرقا بينهما كالفرق بين الفصحى والفصيحة.

أما الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) " فلم يذكر مصطلحي الفصيحة والفصحى في كتابه "القاموس المحيط إلا في موضعين ، الموضع الأول ذكر فيه مصطلح الفصيحة ، يتمثل بقوله : ((والعَكِدُ ، ككَتِفٍ : اليابسُ من الشجر ، بعضُها فوقَ بعضٍ . وكسَحابٍ: جبلٌ قُرْبَ زَبيدَ ، أهلُها باقِيَةٌ على اللُّغَةِ الفصيحةِ))[١٢٢] ، يلاحظ أن الفيروزآبادي قد خلط بين مصطلحي الفصيحة والفصحى فلو قال : " باقية على اللغة الفصحى ، لكان أكثر تساوقا مع السياق . أما الموضع الثاني الذي ذكر الفيروزآبادي فيه مصطلح الفصحى فيتمثل بقوله: ((ورحَّمَ عليه ترحيما ، وترحَّمَ والأولى الفصحى))[١٢٣].

---

(١٢٠) سورة الرعد : من الآية ٤١ .

(١٢١) المصباح : ٢/٦٢١.

(١٢٢) القاموس المحيط: ١/٥٨٣.

(١٢٣) م.ن: ٤/ ١١٩.

ولم يكن السيوطي (٩١١هـ) المعروف بجمعه أقوال من سبقه من العلماء أوفر حظا من الفيروز آبادي ، إذ على الرغم من أنه قد خصص النوع التاسع في كتابه "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" لـ (معرفة الفصيح) فإنه لم يستعمل " المصطلحين إلا في ستة مواضع ، خمسة مواضع ورد فيها مصطلح اللغة الفصيحة ، وأثبت التحقيق أن السيوطي كان ناقلا عن غيره في هذه المواضع كلها[١٢٤] ، وموضع واحد ورد فيه مصطلح اللغة الفصحى ، ومن أمثلة استعماله مصطلح اللغة العربية الفصيحة ما رواه عن ابن دريد حين قال : ((قال ابن دريد في كتاب الملاحن: هذا كتاب ألّفناه ليفزع إليه المُجبَرُ المُضْطَهد على اليمين المُكْرَه عليها فيعارِضُ بما رسمناهُ ، ويضمر خلافَ ما يظهر ليَسْلَم من عادية الظالم ويتخلَّص من جَنَف[١٢٥] الغاشم وسمّيناه الملاحن واشْتَقَقْنَا له هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة التي لا يشوبُها الكدَر ولا يستولي عليها التكلّف [١٢٦])) ، فالذي يتضح من سياق النص أن مصطلح اللغة العربية الفصيحة الذي ورد فيه لا يعبر عن المستوى اللغوي الذي ينطبق عليه هذا الوصف ؛ لأن مصطلح اللغة العربية الفصحى أنسب للسياق من

---

(١٢٤) ينظر : المزهر ١ /٥٦٨، ٢٥٠، ٢٢٦، ٢١٥ ، و٢/ ١٥٨، وقد صرح السيوطي بنقله هذه النصوص التي ورد فيها مصطلح اللغة الفصيحة من شرح الفصيح لابن درستويه ، والمقصور والممدود للقالي ، والخصائص لابن جني ، والملاحن لابن دريد ، والجمهرة على التتالي .

(١٢٥) في كتاب الملاحن الذي اعتمدت عليه: ص١٥ "حيف الغاشم" ، والحيف والجنف : الظلم والجور.

(١٢٦) المزهر : ١ /٢٥٠ ، وينظر: الملاحن : ص ١٥.

اللغة العربية الفصيحة ، والعهدة في هذا على ابن دريد الذي نقل السيوطي كلامه كما جاء في الملاحن . أما الموضع الذي استعمل السيوطي فيه مصطلح الفصحى فيمثله قوله : ((ليس في كلامهم اسم أوله ياء مكسورة إلاّ يِسار لليد اليسرى لغة في اليَسار والفتح هي الفصحى)) [١٢٧] ، وعند رجوعنا إلى المعجمات القديمة وجدنا الجوهري قد ذكر هذا النص ، لكنه لم يذكر مصطلح الفصحى ، بل منع كسر الياء الذي عده السيوطي لغة ، قال الجوهري : ((واليسار: خلاف اليمين ، ولا تقل اليسار بالكسر))[١٢٨] ، ولعل السيوطي هو الذي أضاف مصطلح الفصحى ، أو أنه نقله من أحد مصادره .

وإذا ما انتقلنا إلى آخر معجم يحسب على المعجمات القديمة ألا وهو"تاج العروس من جواهر القاموس" للزَّبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ) ، فإننا نجده قد استعمل مصطلح اللغة الفصيحة في (ثمانية عشر موضعا) ، وها نحن نورد مثالا على استعماله مصطلح اللغة الفصيحة ؛ لنوضح من خلاله أن إشكالية الخلط بين المصطلحين ما زالت قائمة ، قال الزَّبيدي متحدثا عن الاسم الذي لا ينصرف : ((وما فيه سَبَبان في الثُّلاثيِّ الساكن الحَشْوِ كنُوحٍ ولُوطٍ مُنْصَرِفٌ **في** اللُّغَة الفَصيحة التي عليها التَّنْزيلُ))[١٢٩] ، فالزّبيدي في هذا النص سمى اللغة التي عليها

---

(١٢٧) المزهر : ٢ /٧٩.

(١٢٨) الصحاح : ٣ /٤٢٣.

(١٢٩) التاج : ٢٤/٢٢.

التنزيل بالفصيحة ، فالأدق أن يقول " اللغة الفصحى" كما هو واضح من السياق .

أما استعمال الزَّبيدي مصطلح اللغة الفصحى فإنه لم يغير شيئا مما توصلنا إليه؛لأن الزَّبيدي الذي يحسب من المتأخرين والذي يعد معجمه من أكبر المعجمات العربية لم يستعمل مصطلح الفصحى في أجزاء معجمه الأربعين إلا في (ثلاثين موضعا) ، أحدها سبقه إلى ذكره ابن سيده في المحكم ، وآخر سبقه إلى ذكره الصغاني في العباب ، وثلاثة مواضع سبقه إلى ذكرها الفيومي في المصباح ، وكثير منها سبقه إليها معجميون آخرون ، وها نحن نورد مثالين على استعماله مصطلح اللغة الفصحى:المثال الأول قوله: ((وتثاءب على تفاعل بالهمز ، هي اللغة الفصحى التي اقتصر عليها في الفصيح[١٣٠] وغيره ، ومنعوا أن تبدل همزته واوا ، قال في المصباح: إنها لغةُ العامة [١٣١] ، وصرح في المغرب بأنها غلطٌ ، قاله شيخنا ، ونقل ابن المكرم عن ابن السكيت: تثاءبت ، على تفاعلت ، ولا تقل: تثاوبت))[١٣٢] ، فقول الزَّبيدي" اقتصر عليها في الفصيح وغيره "يعني أن كل ما اختاره ثعلب يمثل اللغة الفصحى ، وهذا يعزز ما ذهبنا إليه من أن ثعلبا أول من لمح إلى مصطلح الفصحى في "كتاب الفصيح".

---

(١٣٠) ينظر : الفصيح ص٢٧٩.

(١٣١)ينظر : المصباح : ٨٧/١ ، ومما جاء فيه : ((وتثاءب بالهمز تثاؤبا ... وتثاوب بالواو عامي)) .

(١٣٢) تاج العروس من جواهر القاموس : ٨٠/٢ .

والمثال الثاني الذي نورده من التاج هو قول الزَّبيدي: ((الكَبْدُ بالفتح مع السكون مخفف من الكَبِد كالفَخْذِ والفَخِذ. والكسر مع السكون ، وهو أيضا مخفف من الذي بعده ، كالكِذْبِ والكَذِب ، واللغةُ المستعملةُ المشهورةُ الكَبِدُ ، ككَتِفٍ ، وبه صدَّر الجوهريُّ والفيوميُّ وسائرُ أئمَّةِ اللغة. بل أغْفَلا اللغةَ الأولى ، وإنما ذكره صاحب اللسان ، فكان ينبغي للمصنف أن يقدم اللغة الفصحى المشهورة على غيرها))[١٣٣] ، فالزَّبيدي ذكر مصطلحا معادلا آخر للفصحى هو "اللغة المشهورة ، وهو يؤاخذ الفيروزآبادي ؛ لأنه أرجأ اللغة الفصحى المشهورة ، وقدم غيرها عليها.

ما تقدم كان عرضا موجزا وضحنا فيه كيف تعامل المعجميون المتأخرون مع مصطلحي الفصيحة والفصحى ، ركزنا فيه على الوجه الأول من وجهي الإشكالية المتمثل بالخلط بين مصطلحي الفصيحة والفصحى . أما الوجه الثاني المتمثل بتعدد المصطلحات الدالة على مفهومي الفصيحة و الفصحى فلم نر ضرورة لتقديم نماذج على وجوده؛ لأن المصطلحات التي استعملها المعجميون المتأخرون معادلةً لمصطلحي الفصحى والفصيحة تكاد تكون هي المصطلحات نفسها التي استعملها المعجميون الأوائل ، وهذا يعني أن الوجه الثاني من وجهي إشكالية المصطلحين بقي قائما أيضا كما كان عند علماء اللغة والمعجميين الأوائل ، لأن المتأخرين من المعجميين وعلماء اللغة استندوا في معظم ما أودعوه معجماتهم من المواد اللغوية إلى من سبقهم من المعجميين الرواد ومن جاء بعدهم حتى نهاية القرن الرابع للهجرة . ناهيك عن أن

---

(١٣٣) م.ن : ٨٩/٩ .

المتأخرين قد استعملوا مصطلحات مقابلة للفصحى والفصيحة كما فعل أسلافهم ، ولم نر ضرورة لتقديم نماذج على ذلك ، لأن في هذا تكرارا لا مسوغ منهجي له .

أما المحدثون والمعاصرون من الباحثين العرب وغيرهم فقد عرفوا مصطلحي الفصيحة الفصحى ، واستعملوهما في كتبهم وأبحاثهم ، وأصبح شيوعهما لافتا ، فظهرت كتب وأبحاث تشتمل عنواناتها على هذين المصطلحين[١٣٤] ، فعليه فإن الإشكالية تكمن عند قسم من المحدثين في عدم وضوح المفهوم لديهم مما أدى إلى الخلط بين المصطلحين ، وقد تعاملوا معهما وكأنهما مصطلحان مترادفان ، هذا فضلا عن ارتجالهم مصطلحات لا تتوافر فيها شروط صناعة المصطلح اللغوي ، وليس من مهمة هذا البحث الكلام على هذه الإشكالية ؛ لأن عنوانه حدد دراسة الإشكالية في تراثنا اللغوي ، هذا فضلا عن الإشكالية قد بلغت أوجها في أيامنا ؛ ولأن الكلام عليها ، وعرض نماذج عنها من كتابات المحدثين والمعاصرين يحتاج إلى عشرات الصفحات ، وربما احتاج إلى أن نفرد له بحثا قائما برأسه آمل أن أنجزه مسقبلا إن شاء الله .

---

(١٣٤) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الكتب والأبحاث الآتية :

ــ العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد : لهنري فليش ، الذي أصدره سنة ١٩٥٦م .

ــ الجانب المعجمي في الجملة العربية الفصحى : للمؤلف نفسه.

ــ ملاحظات عن الدراسة الصوتية التنظيمية في العربية الفصحى: للمؤلف نفسه.

ــ العربية الفصحى والعربية اللهجية : للمؤلف نفسه.

ــ كتاب قصة التحول إلى الفصحى : الدكتور نهاد الموسى.

* **كتاب الإبدال** : أبوالطيب اللغوي (ت٣٥١هـ) ، تحقيق عز الدين التنوخي ، دمشق ١٣٧٩هـ =١٩٦٠م .

* **الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل العربية واللغة الموحدة** : د. هاشم الطعان ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م

* **الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مائتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس** : د. محمد حسن حسن جبل ، مطابع الدجوي القاهرة ١٩٨٦.

* **أصالة اللغة العربية وعلومها** : د. إبراهيم عبد الله رفيدة ، بحثه في مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٦ ، السنة الرابعة ١٩٨٢.

* إعراب القرآن : أبو جعفر النحاس(ت٣٢٨هـ) ، **تحقيق : د. زهير غازي ، ط٢ بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨م .**

* **الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ) ، ط٢ مؤسسة المختار ، القاهرة ٢٠٠٢ م = ١٤٢٢هـ .**

* **البحر المحيط** : أثير الدين محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى .

* **تاج العروس من جواهر القاموس** : الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) ، طبعة حكومة الكويت ، الكويت ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م .

تحقيق : عبد الستار أحمد فراج وآخرين . ونشرة دار الهداية بالنسبة للأجزاء من ٢٧ ــ ٤٠ ، تحقيق مجموعة من المحققين .

* **تاج اللغة وصحاح العربية** : إسماعيل بن حماد الجوهري (ت حدود ٤٠٠هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٧ م .

* **التعريفات** : أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني(ت٨١٦هـ) ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، د.ت .

* **التلخيص في معرفة أسماء الأشياء** : أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : د. عزة حسن ، مطبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٩م .

* **تهذيب اللغة** : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق محمد علي النجار وآخرين ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، وغيرها ، ١٣٨٤هـ =١٩٦٤م وسنوات أُخر.

* **جمهرة اللغة** : محمد بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ) ، تحقيق : د. رمزي منير بعلبكي ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت١٩٨٧م .

* **الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية** : د.محمد ضاري حمادي ، ط١ مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت١٩٨٢.

***حركة التصحيح اللغوي في العراق أبان ربع قرن** : **ناظم محمد مصطفى ، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ١٤٢٦ هـ =٢٠٠٥م .**

* **الخصائص** : أبو الفتح عثمان ابن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي ، بيروت ــ لبنان ، د.ت.

* **دراسات في فقه اللغة** : د.صبحي الصالح ، ط٤ دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٧٠هـ =١٩٧٠م ..

* **ديوان الأدب** : الفارابي (ت٣٥٠هـ) ، تحقيق : د. أحمد مختار عمر ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٧٤م .

* **ديوان النابغة الذبياني** : تحقيق د. شكري فيصل ، مطابع دار الهاشم ، بيروت ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م .

* **الصرف الواضح** : عبد الجبار النايلة ، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

* **الصرف الوافي دراسة وصفية تطبيقية في الصرف وبعض المسائل الصوتية** : أ. د. هادي نهر ، مطابع التعليم العالي ، الموصل ١٩٨٩م .

* **العباب الزاخر واللباب الفاخر ، حرف السين** : الحسن بن محمد الصغاني (ت٦٥٠هـ) ، تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد١٩٨٧م .

* **العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب:** يوهان فك ، ترجمة د.رمضان عبد التواب ، ط٢ ، المطبعة العربية الحديثة ، مصر ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م.
* **العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد** : هنري فليش ، تعريب وتحقيق : الدكتور عبد الصبور شاهين ، دار المشرق ، بيروت ١٩٨٦م .
* **الفصاحة فصاحات** أو الدعوة إلى ضرورة مراجعة أصول الفصاحة : محمد رشاد الحمزاوي ، حوليات الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد ١٦، ١٩٧٨ ، ص٤٨ .
* **القاموس المحيط** : الفيروزآبادي ، مطبعة البابي الحلبي ، ط٢ ،١٣٧١ هـ =١٩٥٢م القاهرة .
* **قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي : د.عبد العلي الودغيري ، ط١، منشورات عكاظ ، الرباط١٤٠٩هـ =١٩٨٩م .**
* **كتاب سيبويه** : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٨٠هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط٣ ، مطبعة المدني ، ١٩٨٨م .
* **كتاب العين** : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (ت١٧٥هـ) ، تحقيق ، د.مهدي المخزومي ، ود. إبراهيم السامرائي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٠ ـ١٩٨٥م .
* **كتاب الفصيح** : أبو العباس ثعلب (ت٢٩١هـ) ، تحقيق : د. عاطف مدكور ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م .

* **كتاب "ليس في كلام العرب** : لابن خالويه (٣٧٠هـ) تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، ط٢ ، مكة المكرمة ١٩٧٩م .

* **لسان العرب** : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ) ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٦م .

* **اللغة العالية عند ابن دريد : المفهوم ، والوصف ، والأحكام** : د. هادي نهر ، من أبحاث المؤتمر العلمي السابع لوحدة الدراسات العمانية ، بعنوان ابن دريد الأزدي .

* **اللُّغَةُ العربيَّةُ بينَ العامياتِ الدَّارجاتِ والفَصِيحَةِ المُرْتَجَاةِ** : أ.د.عامر باهر الحيالي ، بحث مقدم إلى مؤتمر "اللغة العربية وتحديات العصر" ، الذي ينظمه قسم اللغة العربية في كلية الآداب/جامعة الحسين بن طلال ، والذي كان من المفترض أن ينعقد في مدينة معان ، للمدة ٢٧ ــ ٢٩/١٠/ ٢٠٠٩ ، لكن انعقاده قد أجل إلى إشعار آخر.

* **مجمع الأمثال** : أبو الفضل الميداني(ت ٥١٨هـ) ، حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

* **مجمل اللغة** : أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) ، تحقيق : الشيخ هادي حسن حمودي ، ط ١ ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، الكويت ١٩٨٥م .

***المحكم والمحيط الأعظم في اللغة** : علي بن إسماعيل بن سيده (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق عبد الحميد الهنداوي ، الدار العلمية ، بيروت ٢٠٠٠م .

* **المحيط في اللغة** : الصاحب بن عباد(ت٣٨٥هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٤م .

***المزهر في علوم اللغة وأنواعها** : جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ) ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ت .

* **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي** : أحمد بن محمد المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية ، بيروت .

* **معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء** : د.عبد العال سالم مكرَم و د. أحمد مختار عمر ، ط٣ ، عالم الكتب القاهرة ١٩٩٧م .

* **مقاييس اللغة** : أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) : تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة ١٩٧٩م .

* **الملاحن : ابن دريد الأزدي ، صححه ، وعلق عليه ، وذيَّله بذيل أبو اسحاق إبراهيم اطفيّش الجزائري ، الناشر مكتبة الشرق الجديد ـ بغداد ١٩٩٠م .**

* **من إسرار اللغة** : د. إبراهيم أنيس ، ط٢ ، مطبعـــة لجنـــة البيـــان العربي ، القاهرة ١٩٥٨م .

* **النقد اللغوي في معجمات القرن الرابـــع للهجـــرة** ، عـــامر بـــاهر الحيالي ، أطروحة دكتوراه ، جامعـــة الموصـــل ، كليـــة الآداب ، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الوهـــاب محمـــد علـــي العـــدواني ، ١٤١٧هـــ = ١٩٩٦م .

* **الوجيز في فقه اللغة** : محمـــد الأنطـــاكي ، ط ٢، منـــشورات دار الشرق ، ١٣٨٩هـــ -١٩٦٩م .

نظرية الاشتقاق الاكبر
عند ابن جني في ضوء الدراسات المعاصرة

قاسم كامل محمد
كلية الآداب – جامعة الانبار

الملخص :

يتعرض هذا البحث للاشتقاق الاكبر وما يترتب عليه في تنمية اللغة العربية ، لانه أحد مصادر تلك التنمية ، وقد انتهى البحث بخلاصة وافية للبحث ودوره في هذه المسألة .

المقدمـــة :

تعريف الاشتقاق : للاشتقاق معنيان : أحدهما لغـوي ، والآخـر اصطلاحي ، فمعنى الإشتقاق اللغوي هو : " أخذ شقّ الشيء " أي نصفه ، أو جانب منه ، ومنه قالوا : " اشتقَ الفرس في عدوه " يريدون أنه مال في أحد شقّيه "، وقالوا " قعدوا في شقّ من الدار " يريدون في ناحية منها .[1]

أما معنى الإشتقاق الاصطلاحي فهو : " أخذ صيغة من أخـرى مـع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة وتركيبا ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها ، اختلفا حروفا أو هيئة ، كضارب من ضرب وحـذر من حذر " .[2]

---

(1) دروس في التصريف /١٠ .

(2) فقه اللغة وخصائص العربية /٧٧ ، الوجيز في فقه اللغة / ٤٠٢ وانظـر الأشـباه ج١ /٥٦ وكتاب الإشتقاق .

وعن أهمية الإشتقاق : نرى أن البحث في الإشتقاق وماهيته وأهميته في نمو اللغة وتطورها واتساعها ، قد نال عناية اللغويين قديما وحديثا ، وأن علماء اللغة القدامى أدركوا أهمية الإشتقاق في نموها ، وألف فيه نفر كبير منهم ، يقول السيوطي (ت ٩١١هـ) : " أفرد الإشتقاق بالتأليف جماعة من المتقدمين ، منهم الأصمعي وقطرب وأبو الحسن الأخفش ، وأبو نصر الباهلي والزجاج وابن السراج والرماني والنحاس وابن خالويه " .[٣]

كما نال عناية المحدثين في بحوث منفرده في مطلع القرن الرابع للهجرة ، كما في رسالة السراج ، وكما نراه أيضا في كتاب الإشتقاق لابي بكر ابن زيد صاحب الجمهرة .

والخلاف في نشأة اللغة تبعه خلاف في أنواع الإشتقاق أيضا ، ثم تبع هذا خلاف في أصل المشتقات ، هل هو المصدر أم الفعل ؟ فالبصريون ومنهم – الزجاجي – يرونه المصدر ، والكوفيون يرونه الفعل ، ولكل من الفريقين حججه ، وقد فصل – ابن الأنباري – ذلك كما اشار إليه العكبري في كتابه " مسائل خلافية في النحو " .

وفي الوقت الذي نجد علماء اللغة يكاد يجمعون على الإشتقاق الأصغر في العربية وكثرته فيها ، وتوليده قسما كبيرا من متنها ، في حين نجد طائفة قليلة من الباحثين القدامى ، ينكرون وقوع الإشتقاق كافة ، زاعمين : " أن الكلم كله أصل " .[٤]

---

[٣] المزهر ١ / ٣٥١ .

[٤] الزجاجي ومذهبه في النحو واللغة /١٧١ ، فقه اللغة وخصائص العربية /٦٩ .

أما الإشتقاق الأكبر ، فهو عبارة عن تقليب المادة الثلاثية الاصلية إلى مجموعات صوتية ثلاثية ، تتصرف كل واحدة منها إلى مدلول يشترك مع المدلولات الخمس الأخرى التي ينبثق عنها هذا التقليب بشيء من نسب .

ويقول السيوطي : " وأما الأكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة ، فيجعل (ق و ل) و (و ل ق) و(ل ق و) وتقاليبها الستة بمعنى الخفة والسرعة " [٥]

ومن العلماء من يسمي الإشتقاق الصغير و الأصغر ويسمي الإشتقاق الكبير والأكبر ، وهذا اختلاف في التسمية ، وليس خلافا في حقيقة واحد منها والغالب في تسميتهم هو أن الإشتقاق على ثلاثة أقسام[٦]، وذلك أن التناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه ، إما أن يكون في المعنى وفي اللفظ جميعاً مع ترتيب الحروف الأصول فيهما نحو : ذهاب وذهب ويذهب ، وهو ذاهب ، ونحو : جلوس وجلس ويجلس ، وهو جالس ، ونحو : ضرب وضرب ويضرب ، وهوضارب ومضروب ، ويسمى الإشتقاق الصغير .

وإما أن يكون ذلك التناسب في المعنى وفي اللفظ جميعا مع عدم الترتيب في الحروف الأصول نحو : جذب وجبذ ، وحمد ومدح ، وآن وأنى ، وأيس ويئس ويسمى الإشتقاق الكبير .

وإما أن يكون في المعنى وحده ، ويكون مع ذلك أكثر حروفهما من نوع واحد ، وباقيها من مخرج واحد ، أو من مخرجين متقاربين

---

[٥] المزهر ١ / ٣٤٦ .

[٦] دروس في التصريف /١١ .

نحو : ثلب وثلم ، ونعق ونهق ، وهن وهتل ، ومدح ومده ، ويسمى الإشتقاق الأكبر •

وبعض العلماء من يسمي النوع الثاني الذي يختلف فيه ترتيب الحروف(القلب) ، ومراد هؤلاء قلب الحروف بجعل بعضها مكان بعض ، وربما بيّنوا غرضهم في التسمية ، فسمّوه (القلب المكاني) تحرزا عن القلب الإعلالي الذي هو قلب حروف من أحرف العلة ، حرفا آخر ، منها : كقلب الياء والواو ألفا ، لتحرك كل منهما وانفتاح ما قبله في نحو : باع ، وقال ، وصام ، من البيع والقول والصوم •

ومن العلماء من يسمي النوع الثالث من هذه الأنواع " الإبدال " وربما قيل " الإبدال اللغوي " تحرزا عن الإبدال الشائع المطرد الذي يجري على السنن العربي المشهور [٧]•

ويقول الرازي : " الإشتقاق أصغر وأكبر ، فالأصغر ، كإشتقاق صيغ الماضي والمضارع والفاعل والمفعول وغير ذلك ، من المصدر ، والأكبر هو تقلب اللفظ المركب من الحروف إلى انقلاباته المحتملة ، مثلا : اللفظ من ثلاثة أحرف يقبل ستة انقلابات ، لأنه يمكن جعل كل واحد من الحروف الثلاثة هذا اللفظ ، وعلى كل من هذه الإحتملات الثلاثة يمكن وقوع الحرفين ، والمراد من الإشتقاق الواقع في قولهم : هذا اللفظ مشتق من ذلك اللفظ هو الإشتقاق الأصغرغالبا .[٨]

---

[٧] أنظر دروس في التصريف / ١٣ .

[٨] كتاب الإشتقاق / ٢ .

نظرية الإشتقاق الأكبر عند ابن جني :

يجعل ابن جني في مصنفه" الخصائص "[٩] الإشتقاق ضربين : صغير أو أصغر وكبير أو أكبر ، ويسمّي كلا منهما تسميتين ، ويعنى بالطائفة الأولى ، ذلك الإشتقاق الذي تحدثنا عنه وينحصر في مادة واحدة ، تحتفظ بترتيب حروفها ، كتركيب(سلم) ، فإنك تأخذ منه معنى (السلامة) في تصرفه نحو : سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة والسليم ، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته وبقية الأصول غيره ، كتركيب (ض ر ب) و (ج ل س) و(ز ب ل) على ما في أيدي الناس من ذلك ، فهذا هو الإشتقاق الأصغر .

ويعني ابن جني بالطائفة الثانية " أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع فيه التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وإن تباعد شيء من ذلك ردّ بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الإشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد "[١٠].

ويضرب مثلا لذلك بأصول (ك ل م) وتقالبها : (ك م ل) و (م ك ل) و (م ل ك) و (ل ك م) و (ل م ك) فهذه الصور الست تدلّ على معنى واحد مشترك ، هو القوة والشدّة مهما اختلف مظهر التفسير الذي يقوم به جماعة اللغويين [١١].

---

[٩] الخصائص ٢/ ١٣٣وما بعدها .

[١٠] الإشتقاق لأبي بكرمحمد بن الحسنبن دريد/ ٢٦ .

[١١] الخصائص ١ /٥٢٥ .

وذكر صاحب كشف الظنون[١٢] نقلا عن الرازي : إن اجراء الإشتقاق الأكبر في الأصول الرباعية يقبل أربعة وعشرين انقلابا ، وعلى هذا القياس المركب من الحروف الخمسة .

والسيوطي في المزهر يبسط مثالا للإشتقاق الأكبر نقلا عما ذكره الزجاج في كتابه قال : " قولهم شجرت فلانا بالرمح ، تأويله ، جعلته فيه كالغصن في الشجرة ، وقولهم للحلقوم وما يتصل به شجر ، لأنه مع ما يتصل به كأغصان الشجرة ، وتشاجر القوم ، إنما تأويله اختلفوا كأختلاف أغصان الشجرة ، وكل ما تفرّع من هذا الباب ، فأصله الشجرة .

فقد اخطأ السيوطي بهذا المثال تسمية" ابن جني " في الإشتقاق الأكبر التي سبق التمثل بها ، والتي ذكر ، إنه الذي ابتدع لها هذه التسمية ، إذ يقول " وإنما هذا التقلب لنا نحن " – وفي نظرنا – أن هذا الضرب من الإشتقاق الذي ساقه السيوطي مثله ، بأن تنشأ له تسمية خاصة هي الإشتقاق الكبير .

وقد فطن " الخليل بن احمد الفراهيدي " (ت ١٧٥هـ) إلى هذه الروابط المعنوية في الإشتقاق الكبير ، كما فطن إليها قبل ابن جني شيخه" أبو علي الفارسي " (ت٣٧٧هـ) إلا أن الذي توسع فيها وفي ضرب الأمثلة لها ، هو ابن جني نفسه ، وإن كان لم يزعم اطرّاد هذا النوع من الإشتقاق في جميع مواد اللغة ، بل قال : " واعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة ، كما لا ندعي الإشتقاق الأصغر أنه في جميع

---

[١٢] كشف الظنون ١/ ١٠٨ .

اللغة ، بل إذا كان ذلك الذي هو في القسمة سدس هذا أو خمسه ، متعذرا صعبا كان تطبيق هذا وإحاطته أصعب مذهبا ، وأعز ملتمسا " .[١٣]

وإذا كان " ابن جني " قد أولع بهذا النوع من الإشتقاق وسماه بالإشتقاق الأكبر ، وعقد له فصلا خاصا[١٤] ذكر فيه عددا من الأمثلة الموضحة ، فقد تكلف بعضهم فيه وفي غيره تكلفا لايطاق ، فخرجوا عن مدلول اللفظ الأصلي وتعسفوا في التعليل والتفسير ، فقال حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتابه "الموازنة " كان الزجاج يزعم أنّ كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف ، وإن نقصت حروف إحداهما عن حروف الأخرى ، فيقول : " الرّحل مشتق من الرحيل ، والثور إنما سمّي ثورا ، لأنه يثير الأرض ، والثوب إنما سمّي ثوبا ، لأنه ثاب ، أي (رجع) لباسا ، بعد أن كان غزلا ، حسيبه اللّه[١٥] وأمثال هذه المبالغات التي يظهر عليها التكلف حملت السيوطي على أن يقول عن هذا الإشتقاق الكبير : " إنه ليس معتمدا في اللغة ، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب " [١٦] بل نجد ابن جني نفسه لايسلم رغم اعتداله وترفقه من نقد السيوطي له في هذا الموضوع ، إذ يتهمه بأن توسع في هذا الإشتقاق " بيانا لقوة ساعده وردّه المختلفات إلى قدر مشترك مع اعترافه

---

[١٣] الخصائص ٢ /١٣٣ ومابعدها .

[١٤] المصدرنفسه ١ / .

[١٥] انظر المزهر ١ / ٣٥٤ .

[١٦] المزهر ١ / ٣٤٧ .

وعلمه ، بأنه ليس موضوع تلك الصيغ ، وأن تراكيبها تفيد أجناسا من المعاني مغايرة للقدر المشترك .[١٧]

ويفضل السيوطي في هذا الباب رأي معتدل سديد فيقول : " وسبب إهمال العرب له وعدم التفات المتقدمين إلى معانيه ، أن الحروف قليلة ، وأنواع المعاني المتافهمة لاتكاد تتناهى ، فخصّوا كل تركيب بنوع منها ، ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعا كثيرة ، ولو اقتصروا على تغاير الموادّ ، حتى لايدلوا على معنى الإكرام والتعظيم ، إلا بما ليس فيه شيء من حروف الإيلام والضرب لمنافاتهما لهما – لضاق الأمر جدا ، ولا احتاجوا إلى ألوف حروف لايجدونها " إلى أن يقول : " ففي اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة مابنيت ، ولاينكر مع ذلك أن بين التراكيب المتحدة المادة ، معنى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها ، ولكن التحيّل على ذلك في جميع مواد التركيبات ، كطلب لعنقاء مغرب " [١٨].

ومن الأصول التي أوردها على تقليباتها ، وذكر المعنى الجامع لها ، مما يزيد نظريته ايضاحا (ق و ل) و (ك ل م) وهذا شيء من كلامه في ذلك ؛ " هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول ، ولنقدم أمام القول على فرق بينهما طرفا من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما ، مع تقلب حروفهما ، فأن هذا موضع يتجاوز قدر الإشتقاق ، ويعلوه إلى ما فوقه ، وسنراه طريقا عربيا ، ومسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا ،

---

[١٧] دراسات في فقه اللغة / ٢٠٧ .

[١٨] المزهر ١ / ٣٤٧ .

فنقول : " إن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض وحروفها على بعض وتأخره عنه ، إنما هو للخفوف والحركة ، وجهات تراكيبها الست مستعملة ، لم يهمل منها وهي : (ق و ل) و (ق ل و) و (و ق ل) و (و ل ق) و (ل ق و) و (ل و ق) ففي أولها (ق و ل) هو من القول ، وأن اللسان والفم يخفان له ، والأصل الثاني (ق ل و) منه القلو : حمار الوحش ، وذلك لخفته وسرعته ، والثالث (و ق ل) منه الوقل للوعل ، وذلك لحركته ، وقالوا : توقل في الجبل ، إذا صعد فيه ، والرابع (و ل ق) قالوا (ولق - يلق) إذا اسرع ، وقريء إذ تلقونه بألسنتكم ، أي تخفون وتسرعون والخامس (ل و ق) جاء في الحديث : " لاأكل من الطعام إلا ما لوق لي " ، أي ما خدم ، واعملت اليد وتحريكه ، والسادس (ل ق و) منه القوة للعقاب ، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها [١٩].

ومن " الجمهرة "[٢٠] نلخص أهم ما جاء في مادة (ب ج ر) وتقاليبها ومقارنة بما ورد في " الخصائص " حول تقليب (ج ب ر) ، نجد أنه ليس من الصعب أن نرى ابن جني أوضح الرابط المشترك بين التقاليب المستعملة لهذه المادة ، بينما اكتفى ابن دريد بعرض تلك التقاليب ، وأهمل المعنى الذي اشتركت فيه .

وقد رتب" ابن دريد " تقاليب هذه المادة على هذا النحو : . ج ب ر) (ب ر ج) (ر ج ب) (ج ر ب) (ب ج ر) (ر ب ج) .

---

[١٩] ابن جني عالم العربية / ٨٥ ، ٨٦ .

[٢٠] الجمهرة ١ / ٢٠٧ .

ومن الشواهد التي أوردها على كل تقليب يتضح أنّ المادة مستعملة كيفما تقلبت وجوهها ، وأنه ليس فيها مهمل ، إلا أن شواهد بعض التقاليب أغنى من شواهد بعضها الآخر ، كما أن ما تصرفه العرب باستعماله منها ، اسما أو فعلا أو مصدرا أو صفة ، تتفاوت بين تقليب وآخر ، فليست التقاليب كلها متساوية في الإستعمال ، ولا في كثرة الإشتقاق والتصريف منها .

وللمطلع أن يتساءل : مابال " ابن دريد " يسمي مادته هذه (ب ج ر) ، مع أنه أدرجها بين التقاليب ، الخامسة في الترتيب ، وبدأ بتقليب (ج ب ر) .

أما تسميته المادة (ب ج ر) ، فلما أخذ به نفسه من ترتيب مواد جمهرته حسب الترتيب الهجائي لحروف اصولها مع مراعاة أوائل هذه الاصول ، ولاريب في أن (ب ج ر) تقدم حينئذ على (ج ب ر) كما تقدم على بقية التقاليب ، فإنها جميعا مادة ثلاثية واحدة ، أولها الباء وآخرها الراء ، وأوسطها الجيم .

وأما ابتداؤه بتقليب (ج ب ر) فربما كان السر فيه ما غلب على ظنه ، من أن العرب أكثرت من استعماله ، وتصرفت في معانيه ، ووفرت الشواهد عليه ، وإلا فهو أمر هكذا وقع لإبن دريد ، ومن العبث التساؤل عن تقديم ما قدم ، وتأخير ما أخر[٢١] .

---

[٢١] دراسات في فقه اللغة / ٢٠٩ - ٢١١ .

أ. أهم ما ورد في تقليب (ج ب ر) جبور العظم ، والجبارة : الخشب الذي يشدّ على العضو المكسور ، وأجبرت الرجل على كذا ، فهو مجبر ، والجبر الملك [٢٢] ، والجبّار: للنخل الذي فات اليد .

ب.وفي تقليب (ب ر ج) يذكر ابن دريد (البرج) من بروج الحسن أو القصر ، ويرى أنه عربي معروف ، أما البرج من بروج اسماء ، فلم تعرفه العرب ، إنما كانت تعرف منازل القمر[٢٣] ثم يذكر (البرج) وهو نقاء بياض العين ، وصفاء سوادها ، ويربط بين برج المرأة وبرج العين ، إذ يقول : وتبّرجت المرأة ، إذا اظهرت محاسنها ، وكأن به يقول بعبارة اصرح : إذا اظهرت برج عينيها وجمالها زهوا واختيالا [٢٤].

ج. وفي تقليب (ر ج ب) يتحدث عن رجب الرجل : " إكرامه وتعظيمه ، ويرى أن شهر رجب، سمي بهذا الاسم لتعظيم إياه .

ويذكر أن ما تسند به النخلة إذا مالت وكرمت على أهلها يسمى (الرحبة) وأن النخلة توصف حينئذ بأنها (مرحّبة) وأن أحد فصوص الاصابع يسمى (الراجبة) والجمع (رواجب) .

د. أما تقليب (ج رب) فذكر منه (الجرب) وهو الداء المعروف ، والجربة : القراح ، والجرباء : السماء ، والجربّة : العانة من الحمير ،

---

[٢٢] ومن الغريب أن ابن دريد فاته أن يعرض هنا لاسم اللّه الجبار .

[٢٣] ألا يكون في هذا اعتراض ضمني بأن القرآن هو الذي عرّب البرج ، الذي هو من بروج السماء عندما نزل بمثل هذه الآية {والسماء ذات البروج } .

[٢٤] مقارنة بالمقاييس ١ / ٢٣٩ .

وكذلك الجربّة : للأقوياء من الناس إذا إجتمعوا ، والتجارب ، والرجل المجرّب ، والجربياء : ريح الشمال ، وجربة السيف : قرابة [٢٥].

هـ. وتقليب (ب ج ر) الذي سمي به المادة ، فلا نجد فيه إلا البجرة ، أو البجرة أو الجبرة ، وهي السرة الناتئة ، وقولهم هذا أمر بجريّ ، أي عظيم ، والجمع البجاري ، وهي الدواهي العظام .

و. وفي تقليب (ر ب ج) لم يذكر إلا الرجل الرّباجي ، إذا كان يفخر بأكثر من فعله ، ويستشهد بقول الشاعر :

وتلقاه رباجيا فجورا

فإذا أنعمنا النظر في رأي ابن جني في تقاليب هذه المفردة ، وجدناه قد نفذ خلالها بفكره الثاقب ، ونظره البعيد ، وأيقنا من شروحه لمفرداتها ، أنه حفظها من " الجمهرة " في لوح قلبه ، أو من كتاب آخر نقل منه صاحب الجمهرة ، حفظه ابن جني وضيعناه ، ولا يبعد أن يكون معجم (العين) نفسه أو واحدا من تلك المعاجم القديمة الأول [٢٦].

وقبل أن نعترف لابن جني بحدة الذكاء وخصب الخيال ، لدى استنتاجه الرابط المشترك بين تقاليب هذه المادة ، نرى- لزاما علينا أن نعترف له بمقدرة الساحر الذي يظهر لك شيئا ، في حين أنه يخفي اشياء ، ولكن براعته وخفة يده تبهران بصرك ، فلا أنت تتبعه فيما أظهره ، ولاأنت تلاحقه فيما أخفاه [٢٧].

---

[٢٥] إلا أنه ينقل عن أبي حاتم أن هذا اللفظ معّرب ، فهو بالفارسية (كريبان) .

[٢٦] انظر دراسات في فقه اللغة / ٢١١، ٢١٢ .

[٢٧] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢١٣ .

لقد جمع ابن جني تقاليب هذه المادة ، وما علم أنه متصرف منها ، فأهمل بلطف ورشاقة مالم ينسجم مع المعنى العام الذي استنبطه ، وسد الثغرات فيما كان عليه شيء من الغموض ، واسهب العبارة واطال النفس فيما بدا له متناسقا مع المعنى الذي غاص فيه ، ، وإذا هو يرى أن تقاليب (ج ب ر) إن وقعت ، فهي القوة والشدة [٢٨].

أ· منها (جبرت) العظم والفقر : إذا قويتها وشددت منها ، والجبر الملك ، لقوته وتقويته لغيره ·

ب· ومنها (رجل مجرب) إذا جربته الأمور ونجدته ، فقويت متنه واشتدت شكيمته ، ومنه (الجراب) لأنه يحفظ ما فيه ، وإذا حفظ الشيء وروعي ، اشتد وقوي ، وإذا أغفل وأهمل تساقط وردي ·

ج· ومنها (الأبجر والبجرة) وهو القوي السرة ، ومنه قول علي (رضي اللّه عنه) : " إلى اللّه اشكوا عجري وبجري " تأويله : همومي وأحزاني [٢٩].

د· ومنه (البرج) لقوته في نفسه وقوة ما يليه به ، وكذلك (البرج) لنقاء بياض العين ، وصفاء سوادها [٣٠]وهو قوة أمرها ، وأنه ليس بلون مستضعف ·

هـ· ومنها (رجب الرجل) إذا عظّمته وقويت أمره ، ومنه (رجب) لتعظيم إياه عن القتال فيه ، وإذا كرمت النخلة على أهلها فمالت ،

---

[٢٨] الخصائص ٢ / ١٣٥ .

[٢٩] وهومايفرق كما يفرق ابن دريد بين العجرة والبجرة .

[٣٠] قارن بمعنى (البرج) في الجمهرة .

دعموها بـــ (الرّجبة) وهو شيء تسند إليه لتقوى به [٣١] ، والراجبة أحد فصوص الاصابع ، وهي مقوية ، ومنها (الرباجيّ) وهو الرجل الذي يفخر بأكثر من فعله ، قال : وتلقاه رباجيا فخورا " ، وتأويلـه : أنه يعظـم نفـسه ، ويقـوي أمـره ، ويـاتي بأمثلـة عديـدة فـي مصنفه " الخصائص " .

ويعترف ابن جني أن هذا النوع ليس من اختراعه ، أو اكتـشافه ، فهو أخذ طريقته عن استاذه " أبي علي الفارسي " وليس لابـن جنـي إلا اطلاق التسمية عليه[٣٢] فهو يقول : " هذا موضع لـم يـسمه أحـد مـن اصحابنا ، غير أن أبا علي - رحمه اللّه - كان يستعين به ويخلد إليه ، مع أعواز الإشتقاق الاصغر ، ولكنه مع هذا لـم يـسمّه ، وإنمـا كـان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح إليه ويتعلل به ، وإنمـا هـذا التقليـب لنا نحن " [٣٣].

إذا لم ينسب لنفسه اختراع هذا النوع من الإشـتقاق ، انمـا فـضل تسميته ، ولكنه قد أغرم به وتبناه حتى اصبح يقرن باسمه ، وعدّه بعـض الباحثين من ابتداعه ، كالسيوطي الذي قال : " وأما الأكبر فـيحفظ فيهـا المادة دون الهيئة ... وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جني ، وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به يسيرا وليس معتمدا في اللغة " [٣٤].

---

[٣١] قارن هذه العبارة بما ذكره ابن دريد آنفا عن (الرجبة) .

[٣٢] الدلالة اللغوية عند العرب / ٢٥٨ .

[٣٣] الخصائص ٢/ ١٣٣ .

[٣٤] المزهر ١/ ٣٤٧ .

وقد نسب" آدم متز " ابتداع هذا الإشتقاق لابن جني أيضا مؤيدا السيوطي بهذا الرأي في قوله : " وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة جديدة للإشتقاق اللغوي ، وبقيت عصرا طويلا ، وكان استاذ هذه المدرسة ابن جني الموصلي ، وهو الذي ينسب إليه ابتداع مبحث جديد في علم اللغة ، وهو المسمى الإشتقاق الأكبر ، وهو البحث الذي لايزال يؤتى ثماره إلى اليوم ، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا " [٣٥].

وتحمس لنظرية " ابن جني " كثير من العلماء ، وقاموا بعملية استقراء واسعة في محاولة لجمع أكبر عدد ممكن من الأدلة والبراهين على صحتها ، وعلى الرغم من ذلك مازال فيها جوانب ضعف كثيرة ، كما رأها الدكتور محمد الأنطاكي بقوله :" فهي في أغلب الأحيان تطالبنا بالتسليم بأن العرب الأولين ادركوا بالنباهة وحدها ما لم يدركه غيرهم بالروية واعمال الفكر: استمع معي إلى هذا الفيلسوف ، وهو يرد كلمة (الجراب) إلى معنى القوة قائلا : " وإنما سمّي الجراب جرابا ، لأنه يحفظ ما فيه ، والشيء إذا حفظ كان أقوى ، والمطلوب منك الآن أن تصدق ابن جني في أن العرب لحظت هذه السلسلة من المعاني قبل أن تسمي الجراب جرابا ، وعلى كل حال ، فأن ما جاء به ابن جني لا يزال في مجال النظريات التي تحتمل الكثير من الأخذ والرد ، ولم يخرج بعد إلى مجال الحقائق العلمية التي لا يختلف فيها اثنان " [٣٦].

---

[٣٥] الحضارة الأسلامية في القرن الرابع ١٠ / ٤٣٧ ط٤ دار الكتاب العربي -بيروت ١٩٦٧م .

[٣٦] أنظر الوجيز في فقه اللغة / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

– وفي نظرنا – أن التباين الذي يحدث هو في المبدأ الذي يميـزون به بين الحقائق ، وفي تعريف محدد لها ، وذلك لمرونـة اللغـة العربيـة وقدرتها الفائقة على التوليد والإشتقاق ، لذلك لاخلاف بين المحدثين في أن الإشتقاق وسيلة مهمة من وسائل نمو اللغة العربية وتطورهـا ومواكبتهـا للحضارة والحياة المتجددة .

فالدكتور عبد الواحد وافي يذكر مثالا من الإشتقاق العام هـو : علـم ، نعلم ، اعلم ، اعلمي ، علّم .... الخ بعد أن عّرفه بأنه الأرتباط فـي كـل اصل ثلاثي في اللغة العربية ، بمعنى عام وضع له ، فيحقق هـذا المعنـى العام بـ (العلم) مثلا ، هو إدراك الشيء وظهره ووضوحه في كل كلمـة توجد فيها الاصوات الثلاثة ، مرتبة حسب ترتيبها في الاصل الـذي أخـذت منه ، وهو (ع ل م) ، ثم قال : " وعلى هذه الرابطة يقوم أكبر قسم من متن اللغة العربية "[٣٧] ويسّمى الإشتقاق الأكبر ، الإشتقاق الكبير ويعّرفـه بأنـه ارتباط مجموعات ثلاثية من الاصوات ببعض المعاني إرتباطا مطلقا غيـر مقيد بترتيب ، فيدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبط بها كيفما اختلف ترتيب اصواتها ، وضرب مثلا :

(ج ب ر) و(ق س و) و (ن ج د) وبين أن (ج ب ر) تدل على القوة والشّدة كيفما اختلف ترتيب اصواتها في الكلمة [٣٨].

وهو في هذا يستمد من ابن جني [٣٩] وهناك أيضا ما سمّاه " الإشقاق الأكبر " وهو كما عرّفه – ارتباط بعض المجموعات ثلاثية من الاصوات

---

[٣٧] أنظر المصدر نفسه / ١٧٢ .

[٣٨] أنظر نفسه / ١٧٤ -١٧٥ .

[٣٩] الخصائص ٢/ ١٣٥ -١٣٦ .

ببعض المعاني ارتباطا غير مقيد بنفس الاصوات ، بـل بنوعهـا العـام وبترتيبها فحسب ، سواء بقيت تلك الاصوات على حالها أم اسـتبدل بهـا اصوات آخرى متفقه معها في النوع ، أي أن تتسق الصوتان في المخرج أو يتحدا في جميع الصفات ماعدا الإطباق .

فمن أمثلة التقارب لديه في المخرج تناوب الميم والنون في مثل قول العرب : منقع لونه ، وانتقع ، واللام والنون في مثل : حالك وحانك ... ومن مثل الاتفاق في الصفات ما عدا الاطباق، تناوب الصاد والسين فـي مثل قولهم : ساطع وصاطع والصراط والسراط(٤٠) فهذا عنده من الإشتقاق الأكبر ، وبذلك نرى أنه جعل الإشتقاق ثلاثة أنواع : عام وكبير وأكبر .

أما المستشرق " برجستراسر " فقد خص الاشتقاق في العربية بحـديث واف في كتابه (التطور النحوي) وبين كثيرا مـن خـصائص العربيـة وطرائقها في الاشتقاق مشيرا إلى هذه السمة السامقة لهـا (الاشـتقاق) موضحا أهميتها وظهورها فيها أكثر مما في اللغات الآخرى التي تشاركها في التقسيم الاسري للغات ، وهي لغات الجزيرة القديمة التـى يـسمونها السامية ، وسميناها الجزيرة ، فيقول : وأكثر اللغات السامية أمسكت عـن اشتقاق الاسماء الجديدة في زمان قديم جدا ، إلا على القليل من الأوزان ، كالمصادر والأنساب ، فاصبحت جملة اسمائها محدودة ، لايـزال عليهـا إلا القليل في المدة الطويلة ، فاشتقاق الاسماء فيها ميت أو قريب من الميت واللغة العربية دامت تـشتق الاسـماء الجديـدة الكثيـرة علـى الأوزان

---

(٤٠) أنظر فقـه اللغـة / ١٧٤ - ١٧٥ .

المتنوعة ، وكل شاعر من الشعراء المتقدمين كان يجوز لـــه أن يرتجـل الاسماء الجديدة على الأوزان المعروفة ... [٤١]

وإن امعان النظر في ما اظهره ابن جني من براعة في صنيعه في هذه التقاليب ، والرابط المشترك بينهما ، لا يخطيء التكلف البعيد الــذي وقع فيه ، كما يراه الدكتور صبحي الصالح ، وهو يتلمس الطريــق نحــو الرابط السحري العجيب الذي يردّ هذه التقاليب جميعا إلى اصل واحــد ، ولكن هذا الرابط الذي اهتدى إليه صاحب الخصائص ليس عاما فحسب ، بل هو شديد العموم ، وبلغت عمومه حدّ الإبهام والغموض .

ويتساءل الصالح ؛ هل ترى أعجب من أن تفسر هذه التقاليب كلهــا ، وجميع الصور المتفرعة عنها ، وعلى الرغم مما لكل منها من مفهوم دقيق وإيحاء خاص بهاتين الكلمتين العامتين الموغلتين فـــي العمــوم : القــوة والشدة ؟ وهما كلمتان مبتذلتان من كثرة الاستعمال ، تترادفان وتتعاقبــان حين لا يجد المتكلم سبيلا لتحديد المعنى وتفصيله ، فلا تتمان إلا عن مقابلة حال بحال ، فحال القوة ، تقابل حال الضعف ، وحال الشدة ، تقابل حــال الوهن ، ولا ضير أن يكون مبلغ القوة والشدة في برج العيون !![٤٢]

لو قارنا ما توصل إليه " ابن جني " في هذه التقاليب بمــا وصــل إليه " ابن فارس " المعاصر له الذي لا يؤمن بهذا الإشتقاق الكبير ، لرأينا على حد قول الدكتور صبحي الصالح : " أكثر اعتدالا وأهدى سبيلا ، فما لا ريب عندنا في أنه اطلع على ما جاء في(الجمهرة) ، إن لم نقل إنــه

---

[٤١] براجستراسر / التطور النحوي / ١٠١ .

[٤٢] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢١٥ .

حفظ جله في لوح قلبه ، ولكنه حين ذكر في المقاييس صورة هذه التقاليب في المواضع المناسبة لها ، تبعا لمنهجه في معجمه ، لم يفسرها جميعا بالقوة والشدة جملة واحدة ، بل ردّ بعضها إلى اصل ، وبعضها إلى اصلين ، وتخرج مقتنعا إذا تلبث في قراءة الاصول التي أوردها ، أن لا جامع يربط بين بعضها وبعض ، وأن هذا الجامع ، إن أدركه النظر الثاقب ضعيف ، أوهن من خيط العنكبوت [٤٣].

أ• ففي تقليب (ج ب ر) يرى أنه اصل واحد ، وهو جنس العظمة والعلو والاستقامة ، ويفسر به (الحبار) الذي طال وفات اليد ، ومنه الفرس (الجّبار) ، والنخلة (الجّبارة) وذو الجبّورة ، وذو الجبروت : اللّه جلّ ثناؤه ، فإذا عرض الجبور لعظم ، وللجبارة التي يضم بها العظم الكسير ، كاد يفهمك أنه يقصد من هذا الاصل معنى الاستقامة ، والعظمة والعلو ، ونتساءل هل هذا الاصل من العظمة والعلو والاستقامة ، يرادف الاصل الذي أورده ابن جني في القوة والشدة ! لا يمكن أن يكون- في نظرنا -أن الشيء العظيم العالي أو المستقيم إلا قوي وشديد ، ولكن الذي ميزه عن ابن جني ولم يفته ، ذكر الجبروت : اللّه جلّ وعلا •

ب• ووجد" ابن فارس" في مادة (ب ر ج) اصلين هما : البروز والظهور ، والوزر والملجأ ، فردّ أحدهما إلى برج العيون الجميلة ، وتبرج المرأة الحسناء التي تحرص على اظهار محاسنها ، والآخر إلى

---

[٤٣] دراسات في فقه اللغة / ٢١٥ ، ٢١٦ .

بروج السماء والحصون والعصور ، ورأى أنهم يسمون الثوب الـذي صوروا عليه رسم البروج (ثوبا مبرّجا) [٤٤].

فإن يك بين الوزر والملجأ ، وبين القوة والشدة علاقة ، فأي علاقـة بين القوة والشدة وبين البروز والظهور ؟ ألم يبرأ ابـن فـارس مـن التكلف والتصنع حين ردّ برج العيون إلى البروز والظهـور ؟ أو لـم يتكلف ابن جني تكلفا لا يطاق حين أبى أن يرى فـي بـرج العيـون إلاّ قوة أمرها ، وأنه ليس بلون مستضعف ؟ [٤٥]

ج• وفي مادة (ر ج ب) تجد ابن فارس يتفق مع ابن جني في ملاحظـة معنى القوة ، وإن كان ادق تعبيرا ، فيرى أن (الراء والجيم والبـاء) اصل يدل على دعم شيء بشيء وتقويته [٤٦].

ومن الواضح أنه يقصد معنى القوة في احد معانيها الدقيقـة ، وهـو الدعم ، ونبّه عليه في اصل المادة (الحسن) ، كما نبّه عليه فيما تطور عنه من معان بطريق الكفاية والمجاز •

فالاصل في الباب كله ترجيب الشجرة إذا دعمـت (بالرجبـة) لـئلا تتكسر أغصانها حين يكثر حملها[٤٧] أما قولك (رجّبت الـشيء) أي عظمته ، فكأنك جعلته عمدة تعمده لأمرك ، ومن الباب (رجب) لأنهم كانوا يعظمونه •

---

[٤٤] المقاييس ١/ ٢٣٩ .

[٤٥] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢١٧ .

[٤٦] أنظر المقاييس ٢ / ٤٩٥ .

[٤٧] المصدرنفسه ١ / ٤٤٩ -٤٥٠ .

د • وكذلك في مادة (ج ر ب) يسلك ابن فارس مسلكا عجيبا ، فلا يذكر ما أورده ابن جني ، ولا ابن دريد من وصف الرجل (بالمجرب) إذا جربته الأمور ونجدته ، ولا يعرض لتجارب الدهر واثرها في الإنسان، بل يردّد (الجيم والراء والباء) بين اصلين : أولهما الشيء البسيط يعلوه كالنبات من جنسه والآخر شيء يحوي شيئا[٤٨] وكم تكلف ابن فارس حتى وجد لهذه المادة اصلها ، ظنا منه أن لاشيء كهذا الاصل يطوي مفهوم (الجرب) الداء المعروف ، فلا بد من أن ينبت على الشيء نبات بسيط من جنسه أو شيء يشبه هذا النبات حتى يتم تصور الجرب ، مع أنّ فكرة النبات ليست من الوضوح في معرض الحديث ، بحيث تؤدي فكرة الحكّ والتحككّ مثلا في الجرب من الإبل والناس • واننا- نجد ابن فارس كمن يقنع نفسه بصلاحية هذا اصل والإيحاء بمفهوم (الجرب) حين ينتقل من وصف الناقة بالجرباء إلى وصف السماء بالجرباء ، ويقول : " ومما يحمل على هذا تشبيها تسميتهم السماء (جرباء) شبهت كواكبها بجرب الأجرب ، ويستشهد بقول اسامة بن الحارث:

أرته من الجرباء في كل منظر طبابا فمثواه النهار المراكد [٤٩]

ولم يزد ابن جني إلا أن تكلف فاسرف ، فما عسى أن يقول في الجرب ؟ وأي علاقة له بالقوة والشدة ؟ وهل كان لاحد أن يستنبط من ضعف الداء ، ومن وهن المرض شدة ؟

---

[٤٨] نفسه ١ / ٤٤٩ – ٤٥٠ .

[٤٩] المقاييس ١ / ٤٤٩ –٤٥٠ .

أما في الاصل لمادة (ج ر ب) وهو الشيء الذي يحوي شيئا ، فقد أورد ابن فارس (الجراب) المعروف بالجوف من الأعلى إلى الاسفل ، وربط هذا بجوف البئر من أعلاها إلى اسفلها ، وشبه جوف البئر بالجراب الذي يحوي ماءها وغيره ٠

ونقل معنى الإحتواء بلطف الصنعة إلى معنى التجمع ، فرأى العانة من الحمير إذا تجمعت سميت (جربّة) ، ورأى الأقوياء من الناس إذا تجمعوا سمّوا (جربّة) أيضا واستشهد بقول الشاعر :

ليس بنا فقر إلى التشكي   جربّة كحمر الأبك

ولكن ابن جني فاته أن يومىء إليه مع أنه أدى إلى تحقيق معنى القوة والشدة من كثير من الأمثلة الأخرى التي أوردها ، ولعله أدرك أن (الجربّة) ليسوا أقوياء الناس في كل حال ، بل في حال التجمع ، فلم يشأ تأويل اللفظ على غير وجهه ، أو حمله على غير محمله [٥٠].

وحينما نقرأ المقاييس ، نجد أن الباء والجيم والراء في (ب ج ر) اصل واحد ، وهو تعقد الشيء وتجمعه [٥١] ٠

ويذكر الدكتور صبحي الصالح أن ابن فارس كمن وقع على المعنى الاصوب والمفهوم الأدق للرجل الأبجر ، فما هو بالقوي السرة ، كما أبى ابن جني إلا أن يزعم ، بل الذي تخرج سرته وتتجمع عند العروق ، واصل هذه كله (البجرة) وهي السرة الناتئة ، فأين نجد معنى القوة والشدة في مثل هذا ؟ ويبدو أن مفهوم التكلف واضح عند ابن فارس

---

[٥٠] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢٢٠ .

[٥١] المقاييس ١ / ١٩٨ .

حتى في وصف الدواهي ، و(البجاري) ، إذ يعلل وصفها بأنها : " أمور معقدة مشتبهة " .

هـ. اما في التقليب الأخير (ر ب ج) فقد ذكر ابن فارس كلمة (الترّبج) بمعنى التخير فقط ، وأبدى شيئا من الأرتياب في صحتها [٥٢] ولكنه مع ذلك نسب إلى الخليل نفسه تفسيرها بالتحير [٥٣] ثم انّ (الرباجة) بمعنى الفدامة قريبة من ذلك .

وعلى الرغم من أن ابن دريد يقتفي اثر الخليل ، وينقل عنه كثيرا من أقواله ، فانه لم يورد في (الجمهرة) شيئا عن الرباجة ، فلعله لاحظ معناها في (الرباجي) ، فهو قدم أحمق ، لأنه لا يعوّل على ما فعل ، بل يفخر بأكثر من فعله .

وقد شاهد ابن جني غير مرة شيخه أبا علي الفارسي [٥٤] يقلب الاصول لمعرفة بعض المواد ، فيّعينه هذا التقليب ويأخذ بيده ، ويفتح عليه من افاق البحث ما لم يحتسب : " ألا ترى أنّ أبا علي رحمه اللّه كان يقوي كون لام (أثفيه) فيمن جعلها (أفعولة) واوا بقولهم : أجاء يثفه ؟ ويقول : من الواو لا محالة ، كيعده ، فترجح بذلك الواو على الياء التي ساوقتها في يثفوه ويثفيه ، أفلا تراه كيف استعان على لام ثفا يفا وثف ؟

---

[٥٢] أنظر المقاييس ٢ / ٤٧٢. .

[٥٣] أنظر المخصص ١٢ / ١٢٨ .

[٥٤] الخصائص ٢ / ١٣٩ ، الوفيات ١ / ١٣١ ، انباء الرواة ١/ ٢٧٣ تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ .

وإنما ذلك لأنها مادة واحدة شكّلت على صور مختلفة ، فكأنها لفظة واحدة " .

لذلك افتتح ابن جني " خصائصه " بتقليب حروف القول والكلام ، كأنما أراد أن يرسم للقاريء منهجه ، وهو بعد في أول الطريق ، وصرّح بأنه ، إنما رسم له من منهجه رسما ليحتذ به ، ويتقلبه فيحظى به ، ويكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله " [٥٥]

فإن هذا " أغرب مأخذا مما تقتضيه صناعة الإشتقاق ، لأن ذلك ، إنما يلتزم فيه شرح واحد من تتالي الحروف من غير تقليب لها ولا تحريف " [٥٦].

بيد أن ابن جني على استعانته بهذا الإشتقاق الكبير واسترفاده إياه ما كان لينخدع بما وراء تقليب الاصول فيه من نتائج واحكام ، وما كان ليعمم هذه النتائج والأحكام على جميع المواد والاصول ، فقد يتقارب اصلان في " التركيب بالتقديم والتأخيرمن غير أن يكون أحدهما مقلوبا عن صاحبه ، كقولهم (جذب وجبذ) ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه وذلك أنهما ... يتصرفان تصرفا واحدا نحو : جذب ، يجذب ، جذبا فهو جاذب ، والمفعول مجذوب ، وجبذ ، يجبذ ، جبذا ، فهو جابذ ، والمفعول مجبوذ .. جعلت مع هذا ، أحدهما اصلا لصاحبه ، فسد ذلك ، لأنك لو ..لم يكن أحدهما اسعد بهذه الحال عن الآخر " [٥٧].

---

[٥٥] أنظر الخصائص ٢ / ١٣٩ .

[٥٦] الخصائص ١ / ١٢ .

[٥٧] المصدر نفسه ٢ / ١٣٥ .

وعدّ ابن جني أن كلا من (جبذ وجذب) لغة مستقلة من لغات العرب ، واصلا بنفسه ، ونفى أن يكون أحدهما اصلا لصاحبه ، ولو لم يكن مقتنعا بذلك ، لوجب عليه أن يعد أحدهما اصلا والآخر مقلوبا عنه ، ولكان له ولغيره أن يقلب أحد الاصلين على جهاته الستّ ، فيكون بين يديه في الحالتين هذه التقاليب : (ج ذ ب) (ج ب ذ) (ب ج ذ) (ب ذ ج) (ذ ج ب) (ذ ب ج) ٠

وابن جني لا يمنع تقليب أحد الاصلين (جذب أو جبذ) على جهاته الست التي رأيت ، ولكنه يشترط أن يعلم مقلب هذه الوجوه ، أنه يبغي تقاليب (جذب) دون سواها أو (جبذ) دون غيرها ، إذ لايفوته أن كلا منهما اصل مستقل قائم بذاته ٠

و ما استنتجه ابن منظور حين قال في(اللسان) :

" جبذ – جبذا ، لغة في جذب ، وفي الحديث " مجبذني رجل من خلفي " وظنه أبو عبيد مقلوبا عنه ، قال ابن سيده : " وليس ذلك بشيء " [٥٨] وقال ابن جني : " ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه ، وذلك أنهما جميعا يتصرفا تصرفا واحدا ٠٠[٥٩]

وأقل ما توحي به هذه التفرقة في الألفاظ المتقاربة بين الاصول وتقاليبها : الغلّو في الحيطة والحذر عند تقليب المادة على وجوهها الممكنة ، حتى لاتلتبس مادة بمادة ، ولايختلط اصل باصل ، ولا تعدو

---

[٥٨] دراسات في فقه اللغة / ٢٢٦ .

[٥٩] اللسان ٥ / ١٠ .

لهجة على لهجة ، ولا تتداخل لغات العرب في ألفاظ شاع بينها اختلاف عليها ، أو تباين في اسلوب أدائها أو طريق استعمالها [٦٠].

وفي هذه التفرقة بين الاصول وتقاليبها نجد أيضا شيئا من التضيق على المكثرين من الإشتقاق الكبير ، الطارئين عليه ، المتكلفين فيه ، المولعين بتقليب المواد على وجوهها المختلفة ، تلذذا بهذا التقليب [٦١].

وفي أمثالهم يقول ابن جني : " فاما أن يتكلف تقليب الاصل ووضع كل واحد من أحنائه موضع صاحبه ، فشيء يعرض له ، ولا تضمّن عهدته ، وقد قال ابو بكر[٦٢] : " من عرف أنس ، ومن جهل استوحش " وإذا قام الشاهد والدليل ، وضح المنهج والسبيل " [٦٣].

التناسب بين اللفظ ومدلوله :

وللولوع بالإشتقاق الكبير، ارتباط وثيق بمذهب المؤمنين بدلالة الحرف السحرية ، وقيمته التعبيرية الموّحية عند اولئك الذين مالوا إلى الإقتناع بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله في حالتي البساطة والتركيب ، حتى رأوا اثبات القيمة التعبيرية للصوت المركب كيفما كانت صورة تركيبه [٦٤].

---

[٦٠] من ذلك مثلا أن (حبذا) تميمية ، و(جذب) حجازية .

[٦١] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢٢٦ .

[٦٢] يقصد أبا بكر بن دريد ، وقد سبقت ترجمته .

[٦٣] الخصائص ١ / ١١.

[٦٤] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢٢٧ .

ولقد رأينا " ابن جني" في طليعة القائلين بهذه القيمة التعبيرية للحرف العربي ، ورأيناه يخلط أحرف مادة ما ، ويمزج بعضها ببعض ويقلبها في تركيب ثلاثي على جهاتها الست المحتملة ، ثم ينظر إلى الحرف الواحد من أحرفها حيثما كان موضعه منها ، على أنه صوت ما يزال بسيطا له دلالته التعبيرية الخاصة [٦٥].

ونجده في مصنفه " الخصائص " يجعل لهذا النوع من الإشتقاق وظيفة دلالية ، حيث يقول : قالوا تعفرت الرجل إذا صار عفريتا " وما أورده ابن جني في الخصائص تحت باب " تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمعاني " [٦٦] فهو يجرد من الألفاظ المختلفة في مبانيها ، معاني متقاربة تقاربا يجعلها مرتبطة بمعنى عام جامع لها تماما ، كحصره لمعنى كل تقليب من تقاليب المادة الواحدة ، وبحثه بعد ذلك عن المعنى العام الذي يجمع هذه التقاليب ، ولافرق بينهما سوى أن تقاليب الإشتقاق الأكبر متقاربة في المبنى ، فتتفق في المعنى الجامع ، بينما في باب تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني ، كما هو واضح أن المباني مختلفة ، ومع ذلك فالمعاني متفقة يربطها معنى عام واحد [٦٧].

- وفي نظرنا - أن الفرق بينهما شكلي ، لأنهما يؤديان إلى نتيجة واحدة ، ففي الإشتقاق ، الألفاظ تدلنا على المعنى الجامع ، أي عن طريق

---

[٦٥] أنظر المصدر نفسه / ٢٢٧ .

[٦٦] الخصائص ٢ / ١١٣ .

[٦٧] أنظر الدلالة اللغوية عند العرب / ٢٦٤ .

الألفاظ نصل إلى المعنى ،في حين أننا في هذا الباب نبدأ من المعنى ونصل إلى اللفظ المؤدي إليه ٠

وفي هذا الباب يقول ابن جني : " وكان أبو علي - رحمه اللّه - يستحسن هذا الوضع جدا ، وينبه عليه ويسر بما يحضره خاطره منه ، وهذا باب إنما يجمع الذي هو من لفظ واحد ، فكأن بعضه منبهة على بعض ، وهذا إنما يعتنق فيه الفكر المعاني غير منبهته عليها الألفاظ ، فهو اشرف الصنعتين وأعلى المأخذين" .[٦٨]

ويضرب المثل على ذلك نحو [٦٩] ، كقولهم : " خلق الإنسان ، من خلقت الشيء ، إذا ملّسته ومعناه ما قدّر ورتب له ، والخليقة فعلية منه " ٠

وتؤكد الدراسة الحديثة أن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة اعتباطية [٧٠] ، أو بعبارة أخرى ليست هناك علاقة طبيعية بين الكاف والتاء والباء في (كتب) مثلا ، ومفهوم الكتابة ، لأنه لو كانت هناك علاقة بين هذه الاصوات ومعناها ، لكانت عندنا لغة عالمية واحدة ، فلما تعددت اللغات ، دل هذا على انعدام العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومعناه ، ولم إلا القول بالعلاقة الإتفاقية أو الاصطلاحية ٠

هذا الذي يسري على لغات العالم كلها ، يسري على العربية أيضا إلا أن " ابن جني " يرى في هذه اللغة ما يميزها عن بقية لغات الدنيا ، وإذا كان ما ذكره قد انفرد به من بين علماء العربية ، ولم يأخذوا به في

---

[٦٨] الخصائص ٢ / ١٣٣ .

[٦٩] المصدرنفسه ٢ / ١١٣ - ١١٧ .

[٧٠] علم اللغة العام / ٨٧ ، وانظر الألسنية مبادئها واعلامها / ٨١ .

الإشتقاق ، لأنه ليس مطردا ، ولما فيه من التكلف كما عبر عن ذلك ابن عصفور[٧١] فأنه من غير شك يعرض ظاهرة لغوية تستدعي الوقوف عندها وتأملها في الأقل الاصول التي يظهر فيها المعنى الجامع بصورة غير متكلفة [٧٢].

وعقدت العرب صلة وثيقة بين صيغة اللفظ والمعنى الذي يؤديه حتى كادت معاني الصيغ تطّرد في العربية ، وكان من أوائل من نبه على هذه العلاقة سيبويه في " الكتاب " .

وحذا " ابن جني " ومن جاء بعد سيبويه حذوه ، فزادوا ووسعوا وأكثروا من الأمثلة والشواهد في هذا الباب .

ولاشك في أن عقد الصلة ومعانيها ، إنما هو نوع من عقد الصلة بين الصوت والمعنى ، على إننا لا نقول بالصلة الطبيعية ، إنما هي صلة وضعية ، ولكنها على أي حال تمثل علاقة قائمة في اللغة العربية بين الصوت والمعنى الذي يؤديه اللفظ [٧٣].

وقد جعل ابن جني ذلك من باب تقارب الحروف لتقارب المعاني ، ووصف هذا التقارب بأنه باب واسع ، وبحث فيه معاني الصيغ والتضعيف وترتيب الحروف بما يضاهي الأحداث ، وحكاية الاصوات ، والتفريق بين المعاني بحركة الحرف الذي في بنية الكلمة والمضارعة في الاصول .

---

[٧١] الممتع / ٤٠ .

[٧٢] أنظر ابن جني عالم العربية / ٧٩ .

[٧٣] أنظر ابن جني ، عالم العربية /٨٩ .

وذكر" سيبويه " عددا من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني [٧٤] منها : النزوان ، والنقزان ، والغفزان ، والغليان والغثيان ، واللمعان ، والجامع بينهما ما تجده فيها من اضطراب وتحرك ٠

وقال ابن جني مشيرا إلى مذهب سيبويه هذا : " فقابلوا بتوالي حركات المثال ، توالي حركات الأفعال [٧٥] فقد ناسب العرب بالصيغة وحركاتها واقع الفعل الذي يعبرون عنه ومافيه من حركة واضطراب ٠

هذه الاشارة من سيبويه جعلت ابن جني يلتفت إلى صيغة أخرى هي : صيغة (الفعلى) في المصادر والصفات ، حيث وجد أنها تأتي للسرعة ، كالبشكى والجمزى ، والولقى ، يقال ناقة بشكى ، أي سريعة خفيفة ، والجمزى : السير القريب من العدو ، أو الوثب والولقى : عدو فيه شدة ٠ وناقة ولقى : سريعة)٠

ومن ذلك ، أنهم جعلوا المصادر الرباعية المضعفة للمعنى المكرر ، كالزعزعة ، والقلقلة ، والجرجرة : " فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر " وقد جعلوا أيضا تكرير العين في الثلاثي دليلا على تكرير الفعل ، فالأصوات " تابعة للمعاني ، فمتى قويت ، قويت ، ومتى ضعفت ، ضعفت ، ويكفيك من ذلك قولهم : قطع وقطّع ، وكسر وكسّر ، وزادوا في الصوت لزيادة المعنى واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه"[٧٦]

---

[٧٤] أنظر الكتاب ٢ / ٢١٨ .

[٧٥] الخصائص ٢ / ١٥٢ .

[٧٦] المحتسب ٢ / ٢١٠ .

وإن كل تكلف ارتكبه اللغويون في باب الاشتقاق بقسميه السابقين : الأصغر والكبير ، لايعدّ شيئا إذا قيس بما اضطروا إلى ارتكابه لدى كل خطوة ، فيما سموه بالاشتقاق الأكبر [٧٧].

إنهم هنا لا يوجهون مادة تدل بترتيبها نفسه على معنى معين ، ولا مادة يخالفون في ترتيبها ، فيقلّبونها على وجوهها المحتملة ، وتظل مع ذلك هي بأحرفها وأصواتها ، فيعتقدون بأتحاد مدلولها أو تقاربه ، وإذ يواجهون أول الأمر مادة ، ويلاقون آخر الأمر مادة جديدة ، فيستبدلون الثانية بالأولى ، ويستعيضونها بأصوات الثانية عن أصوات الأولى ، لأن المخارج متقاربة ، أو الصفات متماثلة ، ولأن أخا الصوت كأنه الصوت نفسه ، فلا فرق بين الأصل والفرع ، ولا بين الصوت وصداه ، فلك أن تتصور مدى التكلف الذي يقع فيه الاشتقاقيون ، عندما يؤكدون في مثل هذا الاشتقاق الأكبر أنّ الصورة " البدلية " لابد أن تعوض الصورة " الأصلية " في مدلولها وإيحائها ، مثلما عوضتها في صوتها وصداها ، لأن المناسبة الطبيعية التي حملت الواضع على أن يضع لفظة (ع ص ر) لأفادة معنى الحبس ، هي التي حملته أيضا على أن يعبر عن المدلول نفسه بلفظ (أزل) فالعين أخت الهمزة ، والصاد أخت الزاي ، والراء أخت اللام .[٧٨]

وقد اصطلحوا على أنّ الإشتقاق الأكبر هو ارتباط بعض المجموعات الثلاثية الصوتية ببعض المعاني ارتباطا عاما لايتقيد بالاصوات نفسها ، بل

---

[٧٧] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

[٧٨] الخصائص ٢ / ١٥٠ .

بترتيبها الاصلي والنوع الذي تتدرج تحته ، وحينئذ متى وردت إحدى تلك المجموعات الصوتية على ترتيبها الاصلي ، فلابد أن تفيد الرابطة المعنوية المشتركة ، سواء احتفظت باصواتها نفسها أم استعاضت عن هذه الاصوات أو بعضها بحروف آخر تقارب مخرجها الصوتي ، أو تتحد معها في جميع الصفات ، من ذلك تناوب اللام والراء في"هديل الحمام وهديره " ، والقاف والكاف في " كشط الجلد وقشطه " والباء والميم في" كبحت الفرس وكمحته " ... وهذه الأمثلة كلها في تقارب المخرج الصوتي .

ومن الأمثلة على الأتفاق في الصفات : تناوب الصاد والسين في " سقر وصقر" و " سراط وصراط " و " ساطع وصاطع " و " مسقع ومصقع " وهكذا .

وابن جني قد أورد في باب " تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني " كثيرا من الأمثلة المتعلقة بهذا النوع من الإشتقاق وقال فيه : " وهذا باب واسع ، من ذلك قول اللّه سبحانه : { إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا } ، أي تزعجهم وتقلقهم ، فهذا في معنى تهزهم هزا ، والهمزة أخت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، كأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة ، لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز ، لأنك قد تهز ما لابال له ، كالجذع وساق الشجرة ، ونحو ذلك .

ومنه العسف والاسف ، والعين أخت الهمزة ... فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين ، ومنه القرمه، وهي الفقرة تحز أنف البعير ، وقريب منه قلّمت اظافري ، لأن هذا انتقاص للظفر ، وذلك انتقاص

للجلد ، فالراء أخت اللام ، والعملان متقاربان ، وعليه قالوا فيها الجرفة ، وهي من (جرف) وقريب من الجّلف ، وهو الميل ، وإذا جلفت الشيء أو جرفته ، فقد أملته عما كان عليه ، وهذا من (ج ن ف) "[٧٩]

وربما لا يكون في هذه الأمثلة تعسف في التطبيق ، وايغال في التعليل ، ولكن التعسف يظهر أشد ما يكون بعدا عن المنطق في مثل قول ابن جني : " نعم وتجاوزوا ذلك إلى ضارعوا بالأصول الثلاثة الفاء والعين واللام ، فقالوا: عصر الشيء ، وقالوا: أزاله ، إذا حبسه ، والعصر نوع من الحبس ، وذلك من (ع ص ر) ، وهذا من (أ ز ل) والعين أخت الهمزة ، والصاد أخت الزاي ، والراء أخت اللام

و قالوا : الأزم ، المنع والعصب : الشدّ ، فالمعنيان متقاربان ، والهمزة أخت العين ، والزاي أخت الصاد ، والميم أخت الياء ، وذلك من (أزم) وهذا من (ع ص ب) وقالوا : السّلب والصرف ، وإذا سلب الشيء ، فقد صرف عن وجهه ، فذاك من (س ل ب) وهذا من (ص ر ف) والسين أخت الصاد ، واللام أخت الراء ، والباء أخت الفاء ٠

وقالوا : الغدر ، كما قالوا : الختل ، والمعنيان متقاربان ، واللفظان متراسلان ، فذاك من (غ د ر) وهذا من (خ ت ل) فالغين أخت الخاء ، والدال أخت التاء ، والراء أخت اللام ، وقالوا : زأر ، كما قالوا : سعل ، لتقارب اللفظ والمعنى إلخ ٠٠٠ "[٨٠]

---

[٧٩] الخصائص ٢ / ١٤٥ -١٥٢ .

[٨٠] الخصائص ٢ / ١٥٠ ومابعدها .

وإذا كان الإشتقاق الكبير يقوم على القلب ، فمن الواضح أن الإشتقاق الأكبر يقوم على الإبدال ، وقد أدرك لغويو العرب إمكان وقوع الإبدال ، مثلما تصوروا، إمكان وقوع القلب ، وأنشؤوا يلتمسون الشواهد على تماثل المعنى بين الصورتين ، المبدلة والمبدل منها ، وانطلقوا يؤكدون أن " من سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام البعض ، ويقولون : مدحه ومدهه ، وفرس ورفل ورفنّ ، وهو كثير مشهور، قد ألف فيه العلماء " .[٨١]

وإن أدنى ملابسة لتكفي لربط القدماء بين الصورتين ، إذ بدا لهم أنهما اشتركتا في معنى متقارب ،مع أن كثيرا من هذا التقارب لا يزيد عن الترادف تارة ، والإشتراك تارة أخرى ، ومن الغريب أن ابن السكيت مثلا في القلب والإبدال لم يذكر في الثلاث مئة كلمة التي اشتملت عليها رسالته ، إلا القليل ، مما يمكن أن يفسر بظاهرة الإبدال تفسيرا صريحا ، وسائر ماستشهد به بعد ذلك ، لم يختلف لفظه إلا في حرف واحد ، كالنون واللام في " التهتان " و " التهتال " وكلاهما يعني سقوط المطر .[٨٢]

أما المحدثون فلهم في هذا الاشتقاق الأكبر رأي آخر يردّون في ضوئه أكثر صور الإبدال إلى ضرب من التطور الصوتي الذي يدخل أحيانا في اختلاف اللهجات .

وقال الدكتور ابراهيم أنيس : " حين نستعرض تلك الكلمات التي فسرت على أنها الإبدال حينا ، أو تباين اللهجات حينا آخر ، لا نشك لحظة

---

[٨١] الصاحبي / ١٧٣ .

[٨٢] أنظر دراسات في فقه اللغة / ٢٣٨ .

في أنها جميعا نتيجة التطور الصوتي ، أي أن الكلمة ذات المعنى الواحد حين تروى لها المعاجم صورتين أو نطقين ، ويكون الاختلاف بين الصورتين لا يتجاوز حرفا من حروفها ، نستطيع أن نفسرها على أن احدى الصورتين هي الأصل ، والأخرى فرع لها أو تطور عنها ، غير أنه في كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه [٨٣]

ورأي المحدثين على جرأته أسلم اتجاها ، وأصح نتيجة من رأي تلك الطائفة من المتقدمين الذين ذهبوا إلى إكثار العرب الإبدال ، كأنه سنة أو عادة ، وكأن النطقين المختلفين عندهم متساويان ، يوضع أحدهما مكان الآخر ، وكأنهم يعتمدون هذا الإبدال إعجابا وتفننا فيه .

على أننا لم نعدم بين المتقدمين من كان يرد كثيرا من صور الإبدال إلى اختلاف اللهجات ، مؤكدا أن العرب لا تعتمد تعويض حرف من حرف ، " إنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان في حرف لمعنى واحد ، حتى لايختلفا إلا في حرف واحد " [٨٤]

وعندما تحدثنا عن اختلاف اللهجات ، ذكرنا كثيرا من الأصوات التي تباين أداؤها بين قبائل العرب ، لاسيما قريش وتميم ، كالتاء والفاء في لثام ولغام ، والظاء والضاد في فاضت نفسه ، وفاظت ، والسين والصاد في السمخ والصمخ ، والقاف والكاف ، في قشطت وكشطت ،

---

[٨٣] من اسرار اللغة / ٥٨ ط٢ .

[٨٤] المزهر ١ / ٤٦٠ .

والجيم والياء ، في صهريج وصهري ، فلا يعقل أن يشترك العرب في شيء من ذلك ، إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون[٨٥]

ومما يدل على أن هذه الأحرف لهجات مختلفة ما رواه اللحياني [٨٦] ، قال : " قلت لأعرابي ؛ أتقول مثل حنك الغراب ، أو مثل حلكه ؟ فقال : لا أقول مثل حلكة ! [٨٧]

لاأقولها أبدا ![٨٨] وليست قصة الإختلاف في الصقر والسقر والزقر عنا ببعيد ، ولاتقل عنها طرافة قصة امام الصرفيين أبي عثمان المازني [٨٩] مع الخليفة الواثق باللّه ، حين غنّت جارية بحضرته بقول : العرجيّ :

أظلوم إن مصابكم رجلا أهدي السلام تحية ظلم

فأختلف من كان بالحضرة من اعراب (رجلا) فمنهم من نصبه ، ومنهم من رفعه ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني ... إياه بالنصب ، فأمر الواثق بنصبه .

وقال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال : فمن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : بارك اللّه فيه – ولا دراك ، ويوم عكّ أكّ عليكّ أكيك شديد الحر [٩٠] وشيء فذّ – بذّ [٩١] ، كلها من قبيل الاتباع ، وودّوا

---

[٨٥] المصدر نفسه ١ / ٤٦٠ .

[٨٦] هو الإمام اللغوي المشهور علي بن حازم اللحياني ، أبو الحسن (ت ٢١٥ هـ) .

[٨٧] المزهر ١ / ٤٧٥ .

[٨٨] المزهر ١ / ٤٧٥ .

[٨٩] هو بكر بن محمد المشهور بالمازني ، إمام الصرفيين من أهل البصرة .

[٩٠] المزهر ١ / ٤٢٠ .

[٩١] المصدر نفسه ١ / ٤٢١ .

لو يجعلونها صورا من الإبدال لما لاحظوه في بعضها من تقارب في المخارج والصفات ! ؟

وبعد ، فإن غلو القوم في الاشتقاق الأكبر ، لا يستكثر عليهم ، فإن حدوده غير واضحة المعالم ، وإنه لمن الابحاث البكر التي وجدت من فراغ الوقت ونعومة البال وترف الفكر عند بعض العلماء ، ما أغني العربية باراء إن يك فيها وهم كثير ، ففيها أيضا خيال خصب !

لذلك يمكن أن نخلص إلى أن الاشتقاق كان كاشفا عن الاصل القديم ، دالا على الصلة والنسب ، وكان الاشتراك في المادة دليلا على وحدة الاصل ، ولو تفرقت المعاني واختلفت الاشكال ، وفيما يأتي أهم الاستنتاجات :

١ ٠ الاشتقاق ، كما تبين لنا من العرض السابق ، هو توليد الألفاظ بعضها من بعض ، ولا يكون ذلك إلا من بين الألفاظ التي يفترض أن لها اصلا واحدا ترجع إليه وتتولد منه ، فهو في الألفاظ اشبه بالرابطة النسبية بين الناس ، فلابد لصحة الاشتقاق بين لفظين أو أكثر من عناصر ثلاثة :

الاشتراك في عدد من الحروف ، وهي في اللغة العربية ثلاثة ، وأن تكون هذه الحروف مرتبة ترتيبا واحدا في هذه الألفاظ ، وأن يكون بين هذه الألفاظ قدر مشترك من المعنى ولو على تقدير الاصل ، ولكن هذا لا يشترط في الاشتقاق، في الاشتقاق الاكبر ٠

٢ ٠ ولاشك في أن هذه الطريقة في توليد الألفاظ بعضها من بعض ، تجعل من اللغة العربية جسما حيا تتوالد أجزاؤه ، ويتصل بعضها من بعض بأواصر قديمة واضحة ، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وإن هذا الإرتباط بين ألفاظ العربية الذي يقوم

على ثبات عناصر مادية ظاهرة ، وهي الحروف أو الاصوات الثلاثة ، وثبات قدر من المعنى ، سواء كان باديا ظاهرا أو مختفيا مستترا .

٣ . ولهذا كان الاشتقاق في اللغة العربية وسيلة رائعة لتوليد الألفاظ للدلالة على المعاني الجديدة ، ولم ينقطع سيل الألفاظ الجديدة في اللغة العربية [٩٢].

ففي صدر الإسلام وفي العصور التالية ، وفي العصر الحديث ، ظهر عدد كبير من الألفاظ لأداء المعاني الجديدة للدلالة على أفكار واشياء مادية ، وذلك بطريقة اشتقاق لفظ جديد من مادة قديمة ، كالجهاد والزكاة والعامل وكالعرض (المقابل للجوهر) والتأليف والتصعيد والتجريح والتعديل والشعوبية والتصدير والإذاعة والرأسمالية .

وكان الاشتقاق كذلك طريقا للتجديد والتنويع الفني ، كاستعمال القرآن للفظ " الواقعة والغاشية ، والطامة والقارعة " بمعنى القيامة لتجديد اللفظ ، وإلباس المعنى حلة جديدة ، وربما ألقى اللفظ بظله على معنى آخر ، فأكسبه بذلك جمالا وجدة ، ونلحظ مادة (شجر) في قول البحتري :

شواجر أرماح تقطع بينهم   شواجن أرحام ملوم قطوعها

٤ . وإذا كان الاشتقاق في اللغة العربية مظهرا من مظاهر حيويتها وقدرتها على التطور والتجديد ، فأنه كذلك مظهر من مظاهر منطقيتها وموافقتها للطبيعة في إرجاع الجزئيات إلى الكليات ، وربط الأجزاء المبعثرة بالمعنى الجامع .

وتتجلى في ذلك مقدرة اللغة العربية في الربط والتصنيف ، سواء في الألفاظ أو في المعاني ، وتطبع بذلك عقلية اصحابها بهذا الطابع المنطقي

---

[٩٢] أنظر فقه اللغة وخصائص العربية / ٧٧ - ٨٠ .

العلمي ، وإن شئت عكست ، فقلت : إن هذه الخاصية هي صدى ما في العقلية العربية من خصائص التفكير المنطقي العلمي [٩٣].

٠٥ والاشتقاق يدلنا على اصول الألفاظ ، فيمكننا من ربط الكلمة بأخواتها ، وأفراد المجموعة التي تنسب إليها ، وذلك مما يثبت معناها ويوضحه ، فإن كلمة سماء من (س م و) و (شتى) جمع (شتيت) من (شمتت) ٠٠٠ الخ ٠

والاشتقاق هو الطريق إلى حسن فهم اللغة والتفقه فيها ومعرفة اسرارها والدخول في عالمها الخاص ، فأنه يربط الألفاظ ويصل بين معانيها ، فأن معرفة مادة (ر ب و) تطلعنا على حقيقة معاني (الربا والربوة) وصلتها بمادة (ر ب ب) ومنها (التربية والرب والمربي) وفيها جميعا معنى الزيادة والنماء ٠

٠٦ وإذا كان الاشتقاق قد جعل ألفاظ اللغة العربية مجموعات ينظم كل واحدة منها سلك جامع مؤلف من مادة ومعنى ، فإنه بذلك اصبح كاشفا عن صل الألفاظ ، وسبيلا إلى معرفة الاصيل من الدخيل ، فإن الكلمة الدخيلة في العربية تبقى غالبا في معزل عن هذه المجموعات ، فلا تجد لها اصلا لفظيا ذا معنى ، يدل على اصالتها كالصراط والفردوس والكوب ، فليس في العربية مادة (ص ر ط) ولا (ف ر د س) ولا (ك و ب) هذا وإن بعض الألفاظ الدخيلة قد يخفى اصلها لالتحاقها باصل عربي لمشابهة لفظية ، ولابد للألفاظ الدخيلة من الإلتحاق باصل عربي ، شأنها في ذلك شأن الغرباء عند العرب ، إذ لابد من إلتحاقهم بالولاء لقبيلة عربية ٠

---

[٩٣] أنظر فقه اللغة وخصائص العربية / ٨١ .

وقد يكون بين هذا اللفظ الدخيل والمادة التي الحق بها تناسبو تقارب بحيث يمكن تخريجه على الاصل العربي ، ولكن العبرة بالرجوع إلى الحقيقة التاريخية لمعرفة الاصل ، وعلى سبيل المثال (المقاليد) بمعنى المفاتيح ، ومفردها (اقليد) ، ولصلها يوناني ، وهو kleida ·
وقد يظن الناظر من غير بحث ، أنها عربية من مادة (ق ل د) وهوْ ظن خاطيء يكشف عنه البحث الاشتقاقي التاريخي ·

٧ · ولهذا يكون الاشتقاق هو الجسر الموصل بين اللغة والحياة الفكرية والاجتماعية ، والسبيل إلى البحث في الصلة بين التعبير والتفكير والعمل أو العادة عند الأمم ، ولم يعن به الباحثون المحدثون في اللغات الأجنبية ، عناية كافية ، كما أن قدماء الباحثين في اللغة العربية لم يبلغوا من بحثه مبلغا شافيا ولا سبروا أغواره واستخرجوا اسراره ، وما زال مجال القول فيه واسعا رحبا ·

٨ · إن الاشتقاق الذي بحثناه فيما تقدم ، والقائم على اشراك الألفاظ في حروف ثلاثة اصلية ، هو الطريقة الاساسية التى لا تزال حية مستمرة في توليد الألفاظ في اللغة العربية منذ العهود التي اكتملت فيها اللغة ، ونقلت إلينا اثارها ونصوصها ، وهو المراد حين تطلق كلمة الاشتقاق تمييزا له من أنواع أخرى من الاشتقاق ·

الترجمة في مجالها الحضاري

الوظيفة التواصلية ووعي ذات الآخر المختلف

وليد خالد احمد حسن

الملخص :

* الترجمة في مجالها الحضاري

الترجمة ، ليست مجرد نقل نص من لغة اولى الى لغة ثانية بل هي نقل حضاري للنص الاول من حضارة الى حضارة اخرى او من نسق ثقافي الى نسق ثقافي آخر . وبذلك لا يكون النص المصدر منعزلا عن سياقه الحضاري الاول الذي خرج منه ولا عن سياقه الحضاري الثاني الذي دخل فيه ، وبهذا تكون عملية النقل (الترجمة) محملة بسياقات حضارية متعددة تقرب بين الحضارات المختلفة واللغات المتعددة والامم المتباينة .

المقدمة :

* مدخل

تظل اشكالية الترجمة في عالمنا الثقافي العربي مطروحة على الدوام وتفرض نفسها بشكل اكثر الحاحا كلما كثر الحديث عن القومية الثقافية والصراع الحضاري والحوار مع الآخر وتآكل الثقافات .

الترجمة ، ليست مجرد نقل نص من لغته الاجنبية الى العربية او العكس بل هي حركة ثقافية وسياسية احيانا لها اهداف ودلالات محددة وتأثيرات واعية في اي محيط ثقافي او اجتماعي تقع فيه او تنتقل اليه. فلا احد ينكر ما للترجمة من دور بوصفها ضرورة معرفية على جميع اللغات منذ تاريخ البشرية ، ذلك ان اهمية الترجمة في الحضارات الانسانية لها تاريخ تليد ومجد اصيل . وقد كان لهذه الاهمية في الثقافة العربية الاسلامية دور حضاري منذ اول مترجم في بداية مهد الاسلام .

ويولي كثير من الباحثين المحدثين العناية القصوى بأهمية دور الترجمة في الادبيات المتداولة في ساحتنا المعرفية ، كما ركزوا في جهودهم على نظرية الترجمة التي جعلوا منها عنصرا فاعلا في تلقي المعرفة وفي تطور مناهج البحث العلمي ، وان اي تطور لا يمكن ان يحصل في مجال البحث العلمي أيا كان منشؤه من دون اعادة النظر في كيفية التعامل مع هذه المعرفة والاهتمام بها ، يعني العناية بوظيفة نقل المستجدات وترجمتها وربط صلة المناهج المعرفية الحديثة باللغة المحلية ، من شأنه ان يبعد الافكار المجردة ، ويقترب من استيعاب ما توصل اليه العقل البشري في معارفه المتباينة واستثماره ، وتمكين عملية التواصل والتلاقي مع هذا العقل عن طريق الترجمة الوظيفية في اجراءاتها العملية المنتجة ، وهذا ما ينعش الاهمية البالغة لمسألة التوسع المعرفي وما يترتب

عليــه مــن نتــاج فكــري وتــشجيع الطاقــات الفاعلــة فــي جميــع المجالات الابداعية.

ان بعض المترجمين كثيرا ما يخطئ في حق الترجمة بوصفها اداة لنقل المعاني في النصين المختلفين او من اللغة الاولى الى اللغــة الثانيــة المترجم اليها ، مع مراعاة الاحتفاظ بالمعنى الاصلي في النص المــصدر. غير ان الحقيقة المعرفية تقتضي التعامل مع الترجمة في اثناء نقل المعرفة بما تمليه ضرورة الاهتمام بالوظيفة التواصلية في النص المصدر في سياقه الحضاري. فالترجمة ليست مجرد نقل نص من لغة اولى الى لغة ثانية بل هي نقل حضاري للنص الاول من حضارة الى حضارة اخرى او من نسق ثقافي الى نسق ثقافي اخر. وفي هذه الحال يفتــرض الا يكــون الــنص المصدر منعزلا عن سياقه الحضاري الاول الذي خرج منه ولا عن سياقه الحضاري الثاني الذي دخل فيه على ان تكون عملية النقل هــذه محملــة بسياقات حضارية متعددة تجعل الترجمة نقلا حضاريا وليس مجرد استبدال لفظ بلفظ او عبارة بعبارة من اللغة المصدر الى اللغة الهدف ، الامر الذي قد يبعدنا عن معرفة حقائق المعارف بين الحــضارات المختلفــة والامــم المتباينة واللغات المتعددة بغرض الافادة والتعايش مع تفاعل الحــضارات بمختلف اطوارها وازمنتها وامكنتها.

إنَّ حقيقة الترجمة في منظور تبادل اللغات ، تعني اهمية التواصل الحضاري بين الشعوب عبر الازمنة المختلفة ، بما قد يعكس صورا مفيدة على وجه الاجمال ، يكون لها شأنها في خدمة جوانب معرفية وحضارية ، على نحو ما وقع لاسباب النهضة في اوربا الغربيـــة ، بفــضل عوامـــل كثيرة ، من ضمنها اهمية الترجمة من العربية الى اللاتينية اعتبارا من عام ١٤٥٣م ، وهي الحقيقة الزمنية الفاصلة بين عصر النهضة فـــي أوربـــة والعصر الذي يطلق عليه الاوربيون اسم العصر الوسيط.

ومن الطبيعي في مثل هذه الحـــال ، ان يكـــون لـــدور الترجمـــة وتعريب المعارف بين بعضها ، الدافع الأَساسي لتحريك العقـــول وتفعيـــل العلوم والتطلع الى الافاق لبناء مجتمع مزدهر ثقافيا ، حيـــث ان الوحـــدة العملية في الترجمة ليست هي الكلمة ولا النص وانما الثقافة ، لان العلاقة مع الآخر ثقافيا لا يمكن ان تتم الا عبر جسر الترجمـــة بوصـــفها نوعـــا مضافا الى اكتساب تجربة معرفية جديدة لها رصيدها وواقعها المتميـــز ، ولعل في مثل هذه التجربة ما ينمي من قـــدرات التحليـــل والاستبـــصار لمعطيات تقود الى احداث تغير في البنية الفكرية التي من شأنها ان تغيـــر من نمط تكوين البنية الحضارية تباعا. لذا اعتبرت الترجمة اداة للتعامل مع جديد العلوم الانسانية والفنون... حيث باتت ضرورة قياســـا الـــى التقـــدم العلمي المذهل الذي تنعم به البشرية ولا سيما مع وجود وســـائل اتـــصال

قوية وفورية سهلت تقارب الشعوب وتواصلها. وهي بهذا تمثل الرابط بين الثقافات المحلية بتيارات الثقافة العالمية. فلقد لعبت الترجمات دورا مهما في نهوض المجتمعات على مر الحقب التاريخية المختلفة . فالترجمة حركة اخذ وعطاء وحركة تبادل في جميع المجالات تتيح اللقاء بين الثقافات والتفاعل بينها ، وينتج عنها ان يشارك بعضها بعضا في الاكتشافات العلمية والتقنية والتراث االثقافي الانساني . اي ان الترجمة بوصفها تراثا اجتماعيا غدت اداة المجتمع للتعامل مع الجديد في العلوم والفنون والانسانيات . وتمثل عاملا اساسيا للتقدم الحضاري . فهي اداة المجتمع على صعيد المنافسة الحضارية لتكون سابقة في العصر وايضا مرجعا للثقافة العالمية منها الامم الآخرى .

ولقد اخذت الترجمة تلعب دورا مهما وحيويا في رسم العلاقة مع الآخر والوعي به . لقد اصبحنا نعيش عصرا بات فيه تمثل الآخر او الاعتراف به يشكل جانبا مهما في ظل الحضور الكثيف والفاعل للرأي والرأي الآخر ، وفي لحظة زمنية واحدة على مسرح الحياة اليومية في عالم باتت تحكمه نظرية العولمة. فلم يعد تمثل الآخر او الاعتراف به ترفا فكريا ، بل اصبح لازمة من لوازم الفكر الانساني. فنجاح اي حوار اختياري او اجباري لا يمكن ان يتم من دون احترام الآخر والاقرار له بحق الدفاع عن رأيه وفكرة الاتيان بالحجج والبراهين والادلة بكل حرية .

كما ان نظرية قبول الآخر كانت وما زالت جزءا من ثقافتنا وحضارتنا . كما بات ضروريا تعميم ثقافة الآخر والتعايش معه والدفاع عن حقه في التعبير عن نفسه ما دام هذا الآخر يلتزم بقانون التعايش والحوار على اسس دينية وانسانية واجتماعية .

من هذا المنظور، تمثل الترجمة اداة للانسان وسبيله للتواصل مع الآخر للخروج من قوقعته ومحليته وذاته نحو الآخر المقيم هو في قوقعته ومحليته وذاته .

هكذا ، تمثل الترجمة بشكل عام قناة مهمة من قنوات الاتصال مع الآخر وفعلا ثقافيا متقدما يستهدف محاورته وتنمية الوعي به . اي انها تمثل تواصلا معه ومجالا يمارس تأثيره فيه ووسيلة نستدل بها على توجيهاته.

والترجمة على هذا النحو ليست مجرد نقل من لغة الى لغة اخرى ، بل حوار يقوم على وجود اعتراف متبادل بين قطبي الحوار. وعلى هذا النحو فهي تشكل اداة معرفية مهمة للوعي بالآخر والتعرف على فكره وثقافته وامكاناته... اضف الى ذلك ، ان الترجمة فعل ثقافي لا يظهر الا في اللحظة التي تدرك فيها الجماعة لدى احتياجها لثقافة الآخر.

وهنا يأتي دور المترجم الذي يجب ان يكون حساسا لما يقوم بترجمته من لغة الى اخرى ، فهو يختار من اللغة الآخرى ما يساهم في تطوير رؤية الآخر والتحاور معه.

*** خطاب التواصل والتثاقف**

ان خطاب الترجمة يجد مبرراته وشرعيته في الوقت نفسه في نسق من العوامل هي جملة اسباب ودوافع موضوعية وذاتية وغايات واهداف، وبين هذه وتلك خيارات وضغوطات تتموقع في الزمان وفي المكان حسب سياقات اجتماعية ثقافية خاصة.

وتتمظهر خصوصية هذه السياقات لدى كل امة او في كل ثقافة في المستويين الخاص والعام عند الحاجة الى معرفة جانب من جوانب (آخر) تعلقت مصلحة تلك الامة ماديا او علميا به وتقاطعت مصالحه في فترة ما، الامر الذي يجعل استكشاف ذلك الجانب من الآخر في تلك الفترة بالذات ضرورة تتوقف عليها في اغلب الاحيان امور كثيرة في الصعيدين العام والخاص.

خطاب الترجمة اذن- باعتباره نقلا لمعنى من لغة الى اخرى- اعادة انتاج لخطاب اخر خارج الحدود الثقافية او الحضارية للمصدر. لكن اعادة الانتاج هذه لا تمس الجوهر او المضمون بل تمس الشكل فقط. اي انها تعيد انتاج الخطاب نفسه لكن بآليات خطابية اخرى تنتمي الى نظام

لغوي مختلف فتكسبه ثوبا جديدا مختلفا عن ثوبه الاول كي يتناسب مع امكانات اللغة المستقبلة . اي مع امكانات التلقي عند الملتقي المفارق للغة او الثقافة او الحضارة الاصل.

لذا يهتم العالم المتطور بالترجمة اهتماما كبيرا فينشئ لها المراكز ويرصد لها الميزانيات ويضع الخطط ، لان النتيجة ستكون في كل الحالات تراكمات هائلة من المعلومات والمعارف المستقاة من الآخر وعنه في كل المجالات .

تنتظم دوافع الترجمة واهدافها في تراتبية تحكمها اهمية ما يراد ترجمته ومدى الحاجة اليه وتعدد اصناف هذا الـ (آخر) الذي تختلف درجاته باختلاف الحضارات وباختلاف اللغات والثقافات داخل الحضارة الواحدة. وقد يحدث ان تختلف لغة التعبير لدى بعضهم داخل الدائرة الثقافية الضيقة الواحدة عن اللغة السائدة لظروف استثنائية ما يستدعي ترجمة هذا الاستثناء .

وعليه ، فالترجمة تخضع دائما لمجموعة من الاجراءات ذات المضمون العقائدي . هناك سياسات كثيرة يضعها الغربيون... مثلا ماذا نستفيد من ترجمة هذا النص ؟ هل سيقبل القارئ عليه، وما التصورات المضمرة في النص ؟ كيف ستتصادم مع تصورات اساسية في هذه الثقافة او تتواءم معها او تثبتها ؟. فاذا كان مطلوبا التكريس في ذهن القارئ

الغربي ، ان الشرق متخلف فلا بد من ترجمة النصوص التي تؤكد هــذا. مثل المعاملة السيئة للمرأة، او وصف المجتمع بالاستبداد وما الـــى ذلــك من سلبيات .

القارئ الغربي يريد ان يقرأ نــصوصا تؤكــد عــادة تــصوراته المسبقة او تضيف اليها او تحورهـــا تحــويرات بــسيطة . فاختيـــارات النصوص تخضع دائما لمجموعة من المعايير ولا تنتهـــي المــسألة عنــد الترجمة بل تتعلق ايضا بأسئلة اخرى.. مثل: هل سينشر النص فـــي دار هامشية ام سيطرح على نطاق واسع ؟ وهل ستدار حوله الحوارات ام سيتم تجاهله ، وهذه اسئلة مهمة لا بد من الاجابة عنها لانهـــا تكمــل المفهــوم والهدف من الترجمة .

*** الترجمة والهوية الثقافية**

الترجمة ، في معناها البسيط نقل من ثقافة الى ثقافة اخرى ، مـــن هوية ثقافية بعينها الى هوية ثقافية مختلفة. ومن ناحية اخرى ، فان الهوية الثقافية في معناها البسيط عبارة عن كيان معنوي متجانس ومترابط فـــي بنائه الداخلي وتجلياته الخارجية.

يبد ان النظرة المتأنية تكشف عن اتساق جوهري في هذه العبارة ، لان الترجمة قد تكون في بعض الاحيان من مكونات الهوية الثقافية لـــدى

بعض الامم او الجماعات البشرية. وقد تتراوح اهمية الترجمة هنا بين ثقافة واخرى بحسب درجة انفتاحها على العالم .

من المهم هنا، ان نضع في اعتبارنا ان الهوية الثقافية لجماعة ما او امة ما، تصنعها عوامل ومكونات عديدة بعضها موروث عن الماضي وبعضها الآخر من نتاج الحاضر وبعضها ناتج عن الاحتكاك بالامم والجماعات البشرية الآخرى .

ويمكن ان نضع تقسيما اخر لمكونات الهوية الثقافية ، فهناك المكونات المادية للهوية الثقافية ، وهناك المكونات اللامادية للهوية الثقافية تتمثل فيما اصطلح المتخصصون على تسميته الثقافة المادية التي تشمل جميع انماط النتاج المادي الذي يعبر عن الهوية الثقافية في جوانبها المادية المتمثلة في الفنون التشكيلية والحرف والصناعات اليدوية والملابس وادوات الزينة وسائر ما يستخدمه الناس في حياتهم اليومية وما الى ذلك... والجوانب اللامادية في تكوين الهوية الثقافية، وهي تتضمن كل ما هو غير مادي من صنوف الابداع الادبي والفكري والفلسفة التي تقوم عليها حياة الجماعة ورؤية الجماعة لذاتها وللآخر ، والعادات والتقاليد وحكمة الماضي الموروثة ، فضلا عن النظام القيّمي والاخلاقي... وما الى ذلك .

وعلى الرغم من ان الهوية الثقافية تتألف من مجموع المورثات الثقافية والفكرية والعادات والتقاليد والنظام القيمي والاخلاقي ونتاج

الحاضر العلمي والفكري والفني... فضلا عن الروافد والمؤثرات الناجمة عن التفاعل المتبادل مع الامم والجماعات الآخرى ، فان الهوية الثقافية لكل امة من الامم او جماعة من البشر تتخذ سمات عامة وملامح كلية مختلفة عن السمات والملامح التي تتسم بها الهويات الثقافية الآخرى ، وهو ما يجعلنا نفرق بسهولة بين الهوية الثقافية للامة والهويات الثقافية للامم الآخرى . ومن ناحية اخرى فانه على الرغم من الوحدة الظاهرية للهوية الثقافية لامة من الامم ، فان هذه الهوية الثقافية التي تبدو واحدة تنطوي على عدد من الهويات الثقافية الفرعية التي تصب في المجرى العام للهوية الثقافية الكلية وتتوازى هذه الثقافة، الثقافات الفرعية مع الخصائص السكانية والاجتماعية لكل بلد من البلاد، فضلا عن الروافد والمؤثرات الناتجة عن التفاعل المتبادل مع الجماعات والامم الآخرى .

كما ان هناك نمطا اخر من الروافد والمؤثرات الخارجية التي تسهم في بناء الهوية الثقافية يتمثل في التفاعل العلمي والادبي والفكري مع الآخر من خلال عملية نقل بعض النتاج العلمي والادبي والفكري... من لغة ما الى لغة اخرى عن طريق الترجمة لمصلحة جماعة ثقافية اخرى .

من هنا يمكن القول، ان الترجمة عن اللغات الآخرى تثري الهوية الثقافية وتقويها ولا تضعفها او تشوش خصائصها ولا تشدها الى اغلال التبعية الثقافية، كما قد يتوهم بعضهم . كما انها لا تدخل ابدا تحت مصطلح

الغزو الثقافي بكل ما يحمله هذا المصطلح من سذاجة وسطحية وما يكشف عنه من التربص والشك غير المنطقي . اذ ان الترجمة عامل فاعل بناء ، في اثراء الهوية الثقافية حقا ، ولكن نتائج عملية الترجمة تمــر بعمليــات تنقية وتصفية متعددة بدءً من مرحلة فعل الترجمة الفردي ووصولا الــى وصول نتائجها غير المباشرة لتصب في المجرى الثقافي العام الذي يشكل الهوية الثقافية .

وبقدر ما تكون درجة انفتاح الامة او الجماعــة البــشرية علــى الثقافات الآخرى على اساس من الاعتماد المتبادل والمــصالح المــشتركة بقدر ما تتحدد وتيرة حركة الترجمة من اللغات الآخرى وسرعة ايقاعها ، وهو ما يحدد بدوره درجة الاندماج مع العــالم والتواصــل مــع الامــم والشعوب الآخرى والاسهام في صنع هذا العالم. وعلى العكس من ذلــك كلما لجأ الى قوقعة الذات وانكفأ في داخله، خرج من العالم الــذي يحــيط به ، فتضعف هويته الثقافية نتيجة الانغلاق والانسحاب .

اننا نرى ان الترجمة عامل ايجابي من عوامل بناء الهوية الثقافية في كل الاحوال ، واذا كان هناك قدر من الشك لــدى بعــضهم فــي ان الترجمة يمكن ان تكون عوامل التأثير السلبي على الهوية الثقافيــة، فــان التجارب التاريخية المعروفة عن تاريخ الترجمة وتأثيراتها فــي التــراث الانساني بشكل عام تؤكد ان الهوية الثقافية للحضارات التي مرت بتجارب

واسعة النطاق في مجال الترجمة تبلورت بشكل اقــوى واكثــر وضــوحا عن ذي قبل .

*** الترجمة والوعي بذات الآخر المختلف**

ان كل ترجمة تتجاهل خصوصية الآخر بكل مقوماتها المعرفيـة والثقافية لن تجدي نفعا ، واهمال هذا البعد هو اهمال للحقيقة المطلقة لبناء الذات على اعتبار ان مقومات الذات مرهونة بمعرفة الآخر، ومهما زعـم المرء لنفسه انه متكامل معرفيا وحضاريا فانه لا بد ان يجد نفسه مضطرا الى الآخر في مكوناته الحضارية بوصفها حلقة اتصال وتبادل وتفاعل في الثقافات ولن يكون ذلك كذلك الا بواقع الاحتكاك بالآخر عبر آلية الترجمة، لان الانسان بالضرورة موجود متفاعل . ومعنى ذلك ، ان وجود المرء هو ذلك الوعي الذي يدعمه ونُطَعمَهُ بوعي آخر ، من خلال مكوناته اللغويـة والثقافية ولن يأتي ذلك الا في ظل امكانية تحقيق غاية الترجمـة . لـذلك حالما تقوم الحاجة الى الترجمة، نجد ان اللغات تسعى الى الاستمداد مـن اسرتها وممن ينتسب اليها عرقيا. ولـيس مـستغربا ان يجمـع منظـرو الترجمة على ان اللغات كلما اقتربت مـن بعـضها نـسبيا فـي ابنيتهـا وتراكيبها ، كانت الترجمة اكثر يسرا وكمالا. وليس في وسع اي لغـة ان تؤكد وجودها الا اذا عرضت على تفاعلها مع لغة اخرى ، الامـر الـذي

يؤدي ضمنيا الى تعزيز هويتنا الثقافية بالافادة من ايجابيات ثقافة الآخر ، ومعنى ذلك، اننا كثيرا ما نجد لدى الآخر مؤثرات تدفع بنا الى التطور .

صحيح ، ان كل امة مقوماتها الثقافيـــة وان تطورهــا مرهــون بمفاهيمها الخاصة ، لكن الاصح من ذلك هو ان هناك عوامل مشتركة بين الامم والحضارات يحاول العلماء والمفكرون اقامتها على اعتبار ان وجــه الحاجة الى تعاضد العلاقة بين هذه الحضارات هو الوعي بما فــي اللغــة بمكوناتها الثقافية ، لان العالم لا ينكشف الا عن طريــق اللغــة بوصــفها عملية تبادلية تتحقق عبر التواصل المستمر بين الذات والآخر...

ولعل هذا هو السبب في تطور الامم في ثقافاتها ومعارفهــا مــن خلال توسيع نشاطات العلوم والمعارف ، لانه مهما اخذنا علــى عاتقنــا استخدام مكوناتها من اجل العمل على تحقيق ذواتنا وتطوير ثقافتنا ، الا ان ذلك لا يخلو من بعض القصور الناتج من العزلة التامة ، فــي حــين ان عمليتي التأثر/ التأثير والاحتكاك المستمر هما حليف الوعي والابتكار، لان مبادئ الانسان قائمة على التجديد، وهذا ما نعتقده جازمين من ان عوامــل ازدهار اية حضارة لا تتم بالصورة المرجوة الا بمدى احتكاكها بالعــالم الآخر والافادة من الحضارات الآخرى عبر آلية الترجمة التي من شــأنها ان تفعّل بين الشعوب والامم، لانه ما من شك في ان الانغلاق على الذات لا يسهم في تقارب الحضارات. ولهذا السبب اصبحت الحاجة ماسة الى ما

توصلت اليه معارف هذه الشعوب او تلك ومقارنتها بمدى ما توصلت اليه المعارف الآخرى من الضفة الآخرى في كثير من مجالات المعرفة .

وليس الارتباط بالآخر سوى الفرصة المناسبة التي تستثمرها الذات لتجاوز القديم والمألوف من منظور ان الحياة البشرية قائمة على العمل المشترك، اذ لا ترقى الامم الا بفضل التبادل والتآزر والتعدد، ومن ثم فان تحقيق الذات مرتبطة بالآخر في سبيل تحقيق النشاط الانتاجي الذي يراد من ورائه تجديد الخبرة الانسانية سواء فيما يتعلق بخبرات الذات العقلية او الوجدانية او الاجتماعية او الثقافية بوجه عام. ومعنى هذا ان التطور المعرفي هو محصلة قدرة الانسان على استعمال كل ما يملك من قوى بما فيها القوى الخارجية في اتجاهها الايجابي او السلبي ، وحين يدرك الانسان حقيقة ذلك، فانه بالضرورة يتخطى كل الصعاب التي من شأنها ان تعرقل مسيرته الحضارية ، وهنا يأتي دور الاهتمام الاعظم بتطور الامم والمجتمعات .

والواقع ان تعريب المعارف من لغات مختلفة لعب دورا فعالا عبر الرسالة التاريخية التي قدمها تداخل هذه المعارف وتقارب اللغات وهو ما سهل مهمة القضاء على العزلة المعرفية بآلياتها المادية وادابها الذهنية . ولعل المحصلة من وراء هذا هو ان تكوين الذات ناتج من التفاعل مع الآخر ، اي ان كلا من الذات والآخر ليسا مستقلين عن بعضهما وانما هما

متآزران ومتعاضدان، وان هذا التكاتف من منظور الاخذ والعطــاء هــو المعيار الحاسم في الامور المتعلقة بتبادل ادوار العقل وتنوع المعرفة ، لذا كانت ظاهرة عمليتي التأثر والتأثير تنبثق من رغبة الانسان في التجديد من خلال مد الجسور مع الآخر عبر وظيفة الترجمة بوصفها تجسيدا لمعارف كل من الذات والآخر ، وان معرفة اي منهما في نهاية الامر لا تعدو وان تكون مجموعة من الافكار والمعارف المفترض تبادلها.

ربما كان ارتباط المعارف بعضها ببعض في الحــالات المتعلقــة بعملية التأثر والتأثير هو تطوير ماكان خفيا وكامنا عند كل مــن الــذات والآخر ، فاذا امكن ذلك اعتبرت الرسالة الانسانية متفاعلة فــي اتجاههــا الصحيح من منظور ان للانسان ايا كان كل الحق في ان ينتظر من تعــدد المعارف في لغاتها المختلفة ان تــؤثر فــي مواقفــه ازاء موضــوعات المعارف المتنوعة.

ويمثل هذا التفاعل بالتحديد المحور الأساســي لابــراز التقــارب والتكامل بين اللغات بما تحتويه من معارف.. ولعل في توطيد صلة هــذا التقارب ما يبرز انسجام الشعوب والامم في بناء مكوناتها الحضارية ، وان السعي الى تحقيق ذلك هو امر ضروري وصحيح ، ليس فقط لانقاذ الفكر البشري من براثن التخصص الشديد والتفرع المــستمر والتــشرذم لانــه يترافق مع نشوء ومسار العصر الكبرى ومشكلاته ويساعد على تــسهيل

حلها لكأن ظهور مشكلات مركبة وتأزمها يترافق وينسجم مع ظهور علوم مركبة ومتكاملة ، وهذا يعني ان دفع عملية التكامل العلمي الى الامم هو في حقيقته وسيلة لاستيعاب هذه المشكلات بصورة سليمة ايضا .

ولعل في هذا الطرح ما يفيد ضرورة اهمية تكامل المعارف. والحاصل انه حينما تحاول مفاهيم الترجمة في اثناء تناولها معالم الآخر، فانها تجعل فهم التلاقح امرا مستساغا بحيث يكون الاتصال بالعالم الآخر اتصالا حضاريا، وبهذا المعنى ايضا تستطيع الترجمة ان تؤدي دورا فعالا لابراز المشكلات البشرية التي تزداد تأزما وسائر مشكلات العصر، والنظرة الشمولية ضرورية لاستيعاب هذه المشكلات باعتبارها منظومة واحدة متكاملة ومتفاعلة وذات بنية ديناميكية متغيرة مما يساعد على الخروج عن اطار التطورات الكمية الضيقة عنها باتجاه منطلقات وتصورات نوعية متطورة .

إنَّ قراءة فكر الآخر من شأنه ان يخلق مشروعا تنويريا لما يحمله من تصور مغاير للفكر المحلي الذي غالبا ما كان يتعامل مع الذات في رصيدها المعرفي بنوع من القداسة الى ان بدا يتحرر نسبيا بالاحتكاك مع الآخر على نحو ما ظهر في نشر الفكر التنويري الذي تعود مؤشرات بدايته الى منتصف القرن التاسع عشر من خلال ما دعا اليه العديد من المترجمين بالاستفادة من ثقافة الغرب . واستمرت الدعوات في هذا

المجال، وعلى الرغم من بعض الهنات مثل عدم تجردهـا مـن الميـول والاهواء ، عدم دقتها كذلك الا انها اسهمت في تفتت الذهن وتفتحه علـى الكون من خلال الاحتكاك بالمغرب... وما وصلت اليه مسألة التنوير فـي معرفتنا بالدعوة الى التغريب محاكاة افكار الغرب جملة وتفصيلا... هـذه المحاكاة والدعوات... حاولت ان ترسخ فكرة توطين اللفكر الغربـي فـي المعرفة العربية .

*** الترجمة والتواصل/ الحوار الحضاري**

تعد الترجمة احد اهم اركان وسائط التواصل الحضاري ، وعلـى المتلقي اختيار ما يلائمه من معروض الفكر التواصلي مـن الحـضارات والامم واللغات المختلفة على النحو الذي نهجه مفكرونا القدامى في تأسيس الحضارة الاسلامية التي خضعت لعامل الاختيار المدروس، فمنـذ فجـر الاسلام وضع المسلمون هذا المنهاج في التواصل الحضاري ، حيث اخذوا من تجارب الحضارات الآخرى وقواعدها وتراتبها ، المشترك الانـساني العام ، واضافوا الى الخصوصيات الاسلامية التي تميز بها منهاج الرسالة الاسلامية الخاتمة، فاختاروا التواصل الحضاري من موقع الراشد المستقل، رافضين التبعية والتشبه والتقليد، وكذلك العزلة والانغلاق . صنعوا ذلـك عندما اخذوا عن اليونان تدوين الدواوين ولم يأخـذوا القـانون اليونـاني

استغناء بالشريعة الاسلامية المتميزة . وعندما اخذوا عن الهند الفلك والحساب لم يأخذوا فلسفة الهند استغناءً بـ التوحيد فلسفة الاسلام .

إنّ حسن الاختيار يكون بتنمية الفكر العام وانضاجه وتطوير الحس النقدي عند المتلقي ، بعيدا عن اساليب الوصاية والقمع والاجبار. وعندئذ نستطيع حصر المشكلة التي يمكن ان نواجهها في عملية التواصل الحضاري في طريقة هذا التواصل وليست في مبدئه، وبالتالي فان الجهود الاساسية يجب ان تنصب على اختيار الاسلوب الانسب لتحقيق هذا التواصل دون ان نرفضه نهائيا، لان الترجمة وحدها هي التي تمدنا برابط التواصل الحضاري وتميز ثقافة هذه الامة عن تلك وتطور هذه المعرفة عن الآخرى بفضل شيوع الترجمة التواصلية.

لقد حظيت الترجمة في الالفية الثالثة بمكانة متميزة في حقل الدراسات المعرفية في بعدها التواصلي، نظرا الى الرغبة الملحة بين الامم في تقارب الثقافات ، ولعل دعامة حوار الحضارات هي احدى الممارسات المهمة لتفعيل اشكال التواصل وليس من الصعب تحقيق ذلك ما دامت الترجمة تقسم في بناء الوعي المعرفي ودلالاته المتنوعة والتداعيات في نفوس المتلقين أيا كان نوعهم .

إنَّ هذا الامر لم يعد فيه اختيار في ثقافة العصر بل من الضرورة المنهجية الداعية الى تناقض الافكار ما دامت هذه الافكار قد خلقت بدافع التواصل وكونها نظاما من العلامات التواصلية .

ولكن كيف يتحدد هذا التواصل بالترجمة ؟ او بالأحرى كيف يمكن للترجمة ان تكون مفتاحا للتواصل؟ ثم كيف تكون بلاغة الالفاظ وسيلة للتواصل ؟ وهل ترجمة نص من النصوص يمكنه ان يقوم بفعل التواصل مع الآخر ؟ وأي نوع من التواصل تقوم به هذه اللغة او تلك ؟ وما نتيجة الدور الذي تؤديه الترجمة رغبة منها في تحقيق التواصل ؟... الى غير ذلك من الاسئلة الملحة على اهمية الترجمة في النسق المعرفي, والثقافي على السواء.

لقد اخذت عملية الاتصال شكلا مميزا في الالفية الثالثة تقوم بالاساس على العلاقة البناءة والمتميزة في تلاقح الافكار والمعارف والثقافات فيما بين الامم ، كل ذلك من اجل اكتساب المعرفة بوصفها معلما انسانيا شاملا ينبغي للبشرية كافة الاحاطة بها وادراك كنهها ، انطلاقا من الفكرة الشائعة في الفلسفة من ان المعرفة هي عبارة عن العالم بحقائق الموجودات حسب الطاقة البشرية، ومن ثم فان طاقة اي انسان غير محدودة في تقبل المعرفة والوقوف على حدود وجودها اينما كانت وبأية لغة كانت ، ما دامت وسائل الاتصال ميسرة وفي متناول

ابسط انسان في هذا العصر، وتتنوع هذه الوسائل عنده بحسب ما اوتي من طاقة وامكانات .

إنَّ من بين العوامل المشجعة على تحقيق هذا التواصل ، هي الرغبة في الانتفاع من الاجناس المعرفية أنَّى كانت ، ومحاولة تلمس حقيقتها بشتى اللغات، تبعا للاسس التي ترتكز على خاصية تعزيز أي حوار انساني قائم على الوعي الحضاري والمتسم بدعائم مد الجسور من خلال وسائل عديدة لعل من اهمها التواصل التجاري والسياسي والثقافي عبر القارات وما تؤديه من دور في تمكين الترجمة من ربط العلاقات بين الثقافات، لأنَّ الترجمة عبور بين الثقافات او تواصل ثقافي ذلك ان اللغة متضامنة مع سياق ثقافي يحتم اضافة الافق الخارج لساني الى نظرية الترجمة، والترجمة اذا ليست للغة ولكن للكلام .

إننا حين ننظر الى الترجمة بوصفها جسرا مهما في ربط التواصل بين ثقافات الامم ، فلأننا نعدها ايضا الوسيلة التي تسهم في تطور المعارف واعادة تأهيلها وتوجهها ضمن اطار تنامي التأثير والاعتراف بالآخر.

ويحاول المنظرون للممارسة الترجمية، الاهتمام بالاتصال الثقافي ضمن اطاره الوظيفي في الحياة المعرفية الناتجة من التجارب الانسانية واشكالها وتطوراتها ، الامر الذي يجعل حركة تنامي التطور في الاتجاه

السليم من خلال العلاقات المتبادلة بين الثقافات التي تدعم المفاهيم والافكار والتصورات المعرفية في سبيل تنامي الوعي المعرفي . واذا كنا نعتبر الترجمة شرطا فاعلا في تطور التصور الذهني للبشرية ضمن الحركة الديناميكية المتبادلة بين الثقافات فلا ينبغي ان نقر بالارتباط المفرط بالآخر وانما صفة الليونة مع تطابق مقوماتنا بثقافة الآخر، تعد مرتكزا اساسيا يأخذ في الحسبان الحيطة من التأثير المطلق المتباين مع ثقافة الذات والافادة من الثقافة المنقولة الينا، ولا سيما الثقافة ذات الحس السليم التي من شأنها ان تنقل المعرفة الوظيفية بالمواضعة*، اي بالتقبل الوضعي لواقعنا الاجتماعي حتى تكون العلاقة قائمة على التبادل وليس على التبعية والارتباط المغلق .

هكذا تعد عملية التواصل/ التلقي جسرا من خلال التفاعل بين لغة النص المنقول منه الى لغة النص المنقول اليه ، اي بين النص الاصلي وتعدد قراءاته في لغات مختلفة، لذلك كان التطور المعرفي رهين التواصل الثقافي ، نظرا الى طبيعة الاستعمالات المختلفة للغات عبر مسار تطور الحضارات ، ولن يكون ذلك كذلك الا بتفعيل الترجمة التي يتم من خلالها نقل تساؤلات النص المصدر في مراسيه واهدافه ، الى الافادة من هذه التساؤلات في ثقافة ولغة ونص الهدف .

من هنا تكمن أهمية التفاعل بـــين اللغتـــين او الثقـــافتين.... لان الترجمة في حد ذاتها هي عملية تواصلية بين الذات والآخـــر ، لتمكـــين مقاربة حوار الحضارات ، وكذلك حتى يستفيد متلقي النص الهـــدف مـــن تجارب روح نص المصدر ، وكذا ما وصلت اليه ثقافة النص الاول ومن ثم تكون عملية التواصل هذه بين الثقافتين ، هي عملية تفاعلية بين طرفين كل منهما يكمل الآخر .

إِنَّ فكرة التواصل هي بالدرجة الاولى وعي بالذات قبل ان تكـــون وعيا بالآخر ، وعي بالاختلاف والمغايرة، وعي بآخريه يستعصي علـــى الذات ان تبلغها بلا وساطة ، وهذا الوعي بالآخر بدوره الذي ينطوي على وعي مماثل بالذات ، يقف عاجزا عن التعرف على الآخر او التعرف على الذات في الآخر الا عبر تلك الوساطة بين هذين الوعين، وهـــي وســـاطة لا توجد فيما بينهما بل تجعلهما قادرين على الدخول في تجربة مـــشتركة او الانخراط في ضرب من التفاعـــل الخـــلاق دون ان يفقـــد اي منهمـــا هويته الذاتية .

والاتصال بالآخر، هو اتصال لتعزيز مكانة الذات عبـــر واســـطة الترجمة التواصلية التي من شأنها ان تفطن الى معنى الاختلاف والمغايرة والدخول في تجربة احترام الرأي الآخر، ومنها يشكل التطور المعرفي من حيث ان الاستنتاج من التجربة يتوقف على مدى ارتباطك بالآخر، والى ما

وقف عليه من اجراءات واحكام معرفية ، وعندئذ تتأسس معالم اليقينيــات والثقة بالنفس في النص الهدف ، وهذا شأن الترابط بين المعارف والتأثير فيما بينها لتحقيق هذا التواصل الذي لــم يعــد مقتــصرا بــين مُخاطــب ومِخاطب ، في حالة عادية بل انتقل الى تواصل بين الثقافات ، اي بــين منظومة من القيم والعلاقات السلوكية والمكانية والزمانية بمنظومة اخــرى تخضع لظروف وملابسات ثقافية اخرى .

*** اللغة أداة للتواصل**

إِنَّ مهمة النظرية التواصلية، تكمن في تعاملها مع اللغة بوصــفها اداة للتوصيل والتبليغ ، اي تواصل بين ثقافــة مرجعيــة وثقافــة متلقيــة للموضوع الذي تتمحور حوله الرسالة. والحديث عن ظــاهرة التواصــل يقودنا بالضرورة الى الحديث عن فعل الترجمة ، وكلاهما يؤدي غــرض التثاقف من خلال مد الجسور بين ثقافتين مختلفتين. ومن هنا تكمن اهمية المترجم المتشبع بثقافة اللغة المصدر والمراد نقلها والمتمكن من عقلية هذه اللغة، فضلا عن تعاطفه معها وفي هذا ما يعزز مكانة الارتباط الوثيق بين التواصل والتثاقف في فعل الترجمة. فلولا امكان التواصل بــين المتــرجم والكائن لما امكن ان يكون تثاقف بين امتيهما. ولكــن مــسألة التواصــل بطريق الترجمة مسألة معقدة ، فهي تفترض دقة اختيار اللفظة من ناحيــة كما تفترض حسن صياغة الجملة والتوفيق في سلسلة الجمل وفقا للحالــة

التي عبر عنها الكاتب ، وهذا يعني ان اللفظة لا تحدث وحدها تواصلا، وان الجملة تسهم اسهاما جزءيا في احداث التواصل، وان التواصل الحقيقي لا يكون الا بنص كامل. ولكي يحدث فهو يتطلب من المترجم الكثير من المرونة في استخدام لغته القومية ليشيع في ترجمته جوا شبيها بالجو الذي اشاعه الكاتب في النص الاصلي .

ولكن ، هل المترجم قادر على توصيل جمالية النص الى متلقي النص الهدف ؟ وبأية كيفية ؟ وهل هو قادر على ذلك فقط من خلال اعادة تركيب البناء اللغوي للنص الاول من اجل تحقيق غايته ؟

إِنَّ الاجابة عن مثل هذه الاسئلة يقتضي منا معرفة علاقة اللغة بالتواصل ، هذه اللغة المبنية على اساس المواضعة والاتفاق في الانساق ، اضف الى ذلك ، ان العلاقة التي بينهما هي تعاضدية تضمينية ولا يمكن اعتبارها موضوعين منفصلين، الامر الذي يشكل وجودا علائقيا بين كلٍّ الالفاظ ووسيلة تواصلها.

واذا كان الامر كذلك ، كانت عملية التواصل في النص المنقول متوازية مع لغة النص الهدف وغايته، مما يعزز الجانب الموضوعي للمترجم في نقل الفكرة بالصورة التي ادرك بها النص الاول بعبارات تجعل متلقي النص الهدف في حالة شبيهة بحالة متلقي النص المصدر، وهو ما يحقق غاية التواصل بين الثقافتين . ويقودنا هذا الطرح الى مسألة

اصول اللغات ومدى تقارب بعضها ببعض من حيث ان اقتراب لغة من اخرى يؤدي بالضرورة الى تقارب نقل الافكار في الثقافات بين الشعوب ، وان دقة النقل تختلف بحسب تقارب اللغة المنقول منها او تباعدهما. فقد تكون اللغتان من اصول لغوية واحدة ، وقد تكونان من اصول متقاربة ، وقد تكونان من اصول مختلفة كل الاختلاف .

ان تقارب اللغتين وتباعدهما يضعان المترجم امام اوضاع خاصة من السهولة والصعوبة . وهذا وذاك من شأنهما ان يؤثرا في قدرة المترجم على التعبير عن النص الاجنبي الذي تمكن من التواصل معه على نحو معين .

تبعا لما تقدم... تكمن اهمية عملية الاتصال / التلقي في زرع مبادرة توليد الافكار الجديدة في ثقافة الآخر وتشجيعه على الابتكار بحكم تقاسمهما الذات/ الآخر ، الوجود والحياة ، في زمان معين... تحقيقا للرغبة المشتركة في تطوير المسار المعرفي الذي من شأنه ان يفضي الى التقدم الحضاري من منظور ان الترجمة هي ممارسة تعانق فيها ذات الآخر ، وتستشرف محاورته ، لان الحياة قائمة اصلا على التلاحم والتواصل سواء ما تعلق منها بالمظاهر المرتبطة بالكون ولا سيما المادية منها او ما كان متعلقا بمظاهر الحياة الانسانية التي تتعرض لها الاعراف والعادات وتدرّسها المعارف والعلوم في جميع مجالات الوقائع التواصلية

النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل المنظومات المرتبطة بالانسان في علاقته مع الآخر ايا كان نوعه ماديا ومعنويا .

إنَّ وظيفة الترجمة تؤدي دورا اساسا في تفعيل المسار المعرفي الى البحث والتجديد ، بوصفها فعل حوار بين الاجناس المعرفية وتجسيد التبادل بين مختلف اللغات وبقدر ما تزدهر الترجمة في لغة ما بقدر ما ينمو انتاج المعرفة في الثقافة المحلية فيتعزز الانفتاح والتواصل ، ويكون فيها المجتمع المنفتح على العالم الآخر قادرا على تطوير قواه الفعلية في مجال الطاقة الابداعية وليس ادل على ذلك مما قامت به من دور للاسهام في بلورة صياغة الفكر العربي الحديث وبعثه من جديد في النصف الثاني من القرن العشرين بفضل اللغة المنقول منها وبقية وسائل التطور والنمو .

* **الخلاصة ...**

إذا كانت نظريتنا تتبنى رؤية عقلانية لغاية الترجمة من خلال ما نتقصاه للمشروع النهضوي ، فاننا من جانب اخر نتبنى نتائج ما نتصوره على اعتبار ان الترجمة مفيدة لكل خطاب ، لان الاساس المعرفي هو ما تقوم به الترجمة من توجيهات رامية الى اضافة فكر جديد وخلق واقع معرفي جديد . اضف الى ذلك اننا إذا ما تساءلنا عن اهمية الترجمة وما تشكله من رصيد معرفي مضاف الى اللغة الهدف المنقول اليها فسنجد انفسنا امام فكرة مؤداها، ان اية حضارة لا يمكن لها ان تحقق علاقة تفاعلية مع ذاتها إذا لم يكن لديها قابلية للتفاعل مع حضارة الآخر ، وذلك ضمانا لرؤية مستقبلية لهذه الحضارة او تلك .

وحينما نعتقد ذلك فلأننا ندرك ان الترجمة عنصر حيوي مهم في بناء ذات الامة ، رغبة في اعادة تشكيل فكرها على اسس معرفية جديدة ومتطورة ، لان التركيز على الذات دون الاهتمام والتطلع الى افكار الآخر من شأنه ان يفضي الى نتائج سلبية تتحسر معها الذات الى التراجع والنغلاق مقابل الانفتاح المتوخي من التعرف الى الآخر من خلال رصيده الثقافي والحضاري بوجه عام .

المراجع....

المراجع التي استعنا بها اعتمدناها للمراجعة والتوكيد والاستقراء لما ورد في دراستنا .

١. ابراهيم صحراوي- مفتاح الولوج الى عوالم الآخر ، الترجمة بين الامانة العلمية والعاطفة الادبية والنقل والاقتباس ، مجلة النور (لندن) ، العدد ١٤٧ (أيار/ ٢٠٠٦) .

٢. احمد النجدي- حركة الترجمة العربية بين الواقع والطموح ، مجلة النور (لندن) ، العدد ١٥٥ (نيسان/ ٢٠٠٤) .

٣. بشير العبودي- الترجمة الى العربية ، قضايا واراء ، ط٢، دار الفكر العربي ، القاهرة ٢٠٠١ .

٤. ثريا اقبال- الترجمة والثقافة دراسة ضمن كتاب- الترجمة وتفاعل الثقافات ، حلقة بحثية ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤.

٥. عبد السلام بن عبد العال- في الترجمة ، ط١، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠١ .

٦. قاسم عبده قاسم- الترجمة وسؤال الهوية الثقافية ، مجلة العربي (الكويت) ، العدد ٦٢٠ (تموز/ ٢٠١٠) .

٧. محمد احمد صالح حسين- اثر الصراع العربي الاسرائيلي في حركة الترجمة من العربية الى العبرية ، مجلة عالم الفكر (الكويت) ، المجلد ٣٦، العدد ٣ (يناير- مارس/ ٢٠٠٨) .

٨. ياسمين فيدوح- اشكالية الترجمــة فــي الادب المقــارن ، ط١، دار صفحات للدراسات ، دمشق ، ٢٠٠٩ .

٩. Jean René Ladmiral- Traduire Théorémes pour La traduction, Payot, Paris, ١٩٧٩ .

١٠. Susan Bassnett- Comparative litteŕature a critical introduction, Oxford, Blackwel, ١٩٩٣ .

١١. المواضعة – هي اتفاق جماعة على تداول شيء ما او لغة ما بوصفها لغة وظيفية ويستنتج دليل اصحاب المواضعة من كون التواضع على لغة ما يحتاج الى الايماءة والاشارة والحواس .

الطب في القيروان

نشأته .. تألقه .. وتأثيره على أوربا

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

طبيب أطفال – الموصل / العراق

الملخص :

يتعرض البحث للمحاور الآتية

المحور الأول – أطباء القيروان : أشهر أطباء القيروان هم :

أ – إسحاق بن عمران رائد الطب في القيروان :

هو مؤسس الطب في تلك الديار ، وهو مسلم من أطباء بغـداد . عمل ودرّس في بيت الحكمة بالرقّادة ومستشفاها . قتله الأمير زيادة الله الثالث في حدود سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٦م . له من الكتب ١٥ كتابا .

ب – تلامذة إسحاق بن عمران : هم

١ _ إسحاق بن سليمان الإسرائيلي: (ت : بعد سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م).

٢ – أبو بكر محمد بن الجزار عم أحمد بـن إبـراهيم ابـن الجـزار .

٣ – علي بن إسحاق بن عمران .

٤ – زياد بن خلفون   ٥– دنش بن تميم .

٦ – أحمد ابن الجزار (توفي في القيروان بحدود ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م) .

٧ – قسطنطين الأفريقي (١٠١٥ أو ١٠١٦ – ١٠٨٧ م) :

ج – أطباء القيروان الآخرون :

١ – ابـن ظـفـر ، ٢ – موسى بن العازار ٣. – عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي أبو مروان . ٤ – عمر بن جعفر بن بريق .

المحور الثاني : الدمنـــة (مستشفى) القيروان :

أن الدمنة أنشئت بالقيروان سنة ٢١٠ هـــ / ٨٢٥ – ٨٣٥ م وهي المستشفى نفسه ودار الجذماء بداخله وقسم من أقسامه. ويبدو أن تسمية (الدمنة) غلبت تسمية المستشفى فـــي القيـروان ، وسوســـة ، صفاقس ، وتونس .

المحور الثالث – بيت الحكمـــة :

أسس إبراهيم الثاني الأغلبي مدينة الرقّادة ، وأسس فيها مركزا مثيلا لبيت الحكمة في بغداد ، أطلق عليه اسم بيت الحكمة . وجعل فيـــه مكتبة ودار ترجمة وتأليف ، ومعهد لتدريس علــوم الطــب والــصيدلة والرياضيات والفلك والهندسة والنبات والموسيقى . بقي بيت الحكمة في الرقّادة يؤدي دوره الكبير في صنوف المعرفة حتى اســتيلاء عبيــد الله المهدي سنة ٢٩٦ هـــ / ٩٠٩ م على البلاد التونسية.

المحور الرابع – انتقال الطب العربي إلى أوربا عبر تونس :

إن من المزايا الكبرى لبيت الحكمة الأغلبي أنـــه أوجـد النــواة الأساسية للمدرسة الطبية المشهورة فـــي تـــاريخ العلــوم (المدرســـة القيروانية) التي انتشر تأثيرها مدة ثلاثة قرون متوالية ، ومنها انبثقت حركة التعليم والتأليف في المادة الطبية في عموم بـــلاد المغــرب ، ثـــم انتقلت كتبها ونتائج بحوثها إلى جنوب إيطاليا. وقد احتوى البحث قـــوائم الكتب المترجمة للاتينية والعبرية لإسحق بن عمران وتلاميـــذه وأطبـــاء القيروان الآخرين .

المقدمــة :

اختط القائد العربي عقبة بـن نـافع مدينـة القيـروان أولا فـي سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م ، ولما خلفه أبو المهاجر دينار سـنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م تحول إلى تكروان وحول إليها الجند وعيالهم أيضا . ولكن لما عاد عقبة بن نافع إلى إمارة إفريقيا ثانية سنة ٦٢ هـ / ٦٨٢ م أعاد الناس إلى قيروانه ، وأعاد عمرانها[١].

وقامت دولة الأغالبة في تونس سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م على يـد مؤسسها إبراهيم بن الأغلب ، واتخذت مدينة القيـروان عاصـمة لهـا ، وامتاز الأغالبة ١٨٤ – ٢٩٦ هـ بتشجيع نشر علـوم الفلـسفة والطـب والحكمة في تونس .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن ((الطب اليوناني كان قد وصل ديار تونس منذ خضوعها لحكم الرومان (حوالي ٤٠ ق . م) الـذين كانـت ثقافتهم الطبية يونانية . ويحتمل أنه وصلها قبل ذلك التاريخ)) وقد وجـد بين الكتب الطبية المتداولة عند أهل البلاد كتاب الفصول لأبقراط ، وبقـي هذا الكتاب مرجعا في هذه الصناعة حتى سنة ٩٩١ م ، أي بعـد دخـول الأغالبة إلى البلاد (١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) بما يقارب المائة سنة . ونقدر أن الطب في حكم البيزنطيين على البلاد (القرن السادس والسابع ب . م)

---

[١] عبد الوهاب ، حسن حسني : ورقات من الحضارة العربية بإفريقيـة التونـسية – مكتبة المنار ، تونس ١٩٦٤ القسم الأول ، ص ٤٧ ، ٥٠ .م .

كان في مرحلة انحطاطه ومن أدنى المستويات . ويبدو أنه بقي كذلك حتى أيام الأمير الأغلبي زيادة الله الأول))[٢].

بعد هذه المقدمة سوف نتناول الموضوع من خلال أربعة محاور :

المحور الأول – أطباء القيروان :

تذكر المصادر أن أول من عالج المرضى بالقيروان من العـــرب أناس من أهل الثقة والزهد ، لهم خبرة بالعلاج التقليدي ولم يكونوا أَطبـــاء أخصائيين ، وهم الذين أطلق عليهم اسم المتطببين أو فقهاء البدن وممـــن جاء ذكر أَسمائهم من هؤلاء سعيد بن عباد من أصحاب الإمام ســحنون ، اللباد الذي مات ٣١٩ هــ ، حبيب ابن الربيع توفي ٣٣٩ هــ ، محمد بن إبراهيم بن صبيح توفي بسوسة سنة ٣٣٤ هــ[٣].

وأول طبيب – بالمعنى الصحيح – يظهر في البيئة الإفريقية هو الطبيب السرياني (أبو يوحنا بن ماسويه) المسيحي النحلة ، فإنه قـــدم القيـــروان فـــي صحبة الأمير يزيد بن حاتم المهلبي (حدود سنة ١٥٥ هــــ / ٧٧٢ م) ونـــراه يسهر على صحة الأمير الجليل ، ويجالسه ، ويعالج رجال الدولة وأعيانها وكان ماسويه هذا ممن تعلم في جنديسابور وأقام بعد ذلك يباشر المرضـــى بـــه مـــدة ثلاثين سنة ، ثم اتصل بهارون الرشيد فخدمه بطبه وعلمه ، ويظهر أنه اتـــصل بالأمير يزيد المهلبي .... وهو الذي استصحبه إلى القيروان[٤] .

---

[٢] السامرائي ، الدكتور كمال : القسم الأول ، ص ٤٧ ، ٥٠ .مختصر تاريخ الطـــب العربي – دائرة الشؤون الثقافية والنشر ، ١٩٨٤ ، ج ١ ، ص ٦٢٤ – ٦٢٥ .

[٣] بن ميلاد ، الحكيم أحمد : الطب العربي التونسي ، ١٩٨٠ ، ص ٣١ .

[٤] راجع ترجمة (ماسويه) في كتاب طبقات الأطبـــاء لابـــن أبـــي أصـــيبعة ج ١ ، ص ١٧١ .

ولا ندري أكانت إقامة ماسويه فيها إلى آخر أيامه أم أنه رجع إلى المشرق بعد وفاة يزيد ، وهو الغالب على الظن والذي نعلمه يقينا أنه ترك ولده (يوحنا بن ماسويه) الذي اشتهر في الصناعة الطبية وحاز بعد أبيه شهرة تامة في بغداد أيام الرشيد والأمين والمأمون والمتوكل . فهذا ما وصلت إليه معرفتنا عن الأطباء والعلماء الذين استوطنوا القيروان في القرن الثاني [٥]. إلاّ أنه بعد تأسيس دولة الأغالبة انتشرت المعارف الطبية ومما ساعد على انتشارها في تونس ميل أمرائها إلى مساعدة العلماء على البحث والترجمة . وكان للأمراء أنفسهم هواية في الأدب والشعر وتعلم اللغات والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة ، فاجتذبت البلاد كثيرا من علماء مصر والأندلس وبغداد ، ونهضت فيها حركة في المناظرة ، واستقصاء الحقائق العلمية والتأليف ، كانت حصيلتها جملة من الكتب القيمة في فنون المعرفة وبخاصة في الطب [٦].

وفيما يأتي نستعرض ترجمة مشاهير الأطباء الذين عرفوا أو نسبوا الى القيروان :

أ – إسحاق بن عمران رائد الطب في القيروان :

((هو أول طبيب على مستوى علمي ظهر في ديار تونس الأغلبية ، وهو بلا منازع مؤسس الطب في تلك الديار ، وشيخ أطبائها جميعا ، وكان يعرف لسرعة إبرائه المرضى باسم : سم ساعة .

---

[٥] ورقات من الحضارة التونسية : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

[٦] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٦٢٥ .

لا نعرف عن أوليات إسحاق بن عمران أكثر من أنه كان من أطباء بغداد وسامراء في أيام الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ – ٢٧٩هـ / ٨٧٠ – ٨٩٢ م) ، في حين نعرف عن حياته المتأخرة في تونس الشيء الكثير ، وهو من المسلمين على عكس ما يشير إليه اسمه . وكانت بغداد حين كان فيها إسحاق بن عمران تعج بالأطباء النابهين أمثال بختيشوع بن جبرائيل وحنين بن إسحاق وأضرابهما . ولابد من أن إسحاق بن عمران قد حصلت له اتصالات بأكثرهم . ونستدل من ثقافته العالية في الطب والحكمة أن تعليمه كان على واحد من تلك الفئة الممتازة . فاستدعاه الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي[٧] ليكون طبيبه الخاص في القيروان . ولو لم يكن من أطباء بغداد أو سامراء البارزين وذا سمعة طيبة في التعامل مع المرضى ما وقع اختيار الأمير عليه دون غيره من الأطباء . وكان الأمير إبراهيم الثاني يتمتع يومئذ بالجاه العريض ، والترف الباذخ ، والقوة التي لا تقهر . وكانت طلبات إسحاق بن عمران منه لكي يلتحق بحاشيته في القيروان متواضعة : راحلة تقله عبر الصحارى ، وألف دينار ، وكتاب أمان بموجبه يستطيع أن يعود إلى بغداد متى شاء . وفي كنف الأمير وجد ابن عمران في بادئ أمره بتونس ما يحقق رغباته ويوفر له متطلبات الدراسة والاتصال بالعلماء وطلبة العلم في بيت الحكمة بالرقّادة ، مثلما كان – على أكثر احتمال – يفعل في بيت الحكمة ببغداد . كما وجد في كل

---

(٧) أما ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٧٨ فيقول أن الذي استدعاه إلى تونس هو الأمير زيادة الله بن الأغلب ، أي زيادة الله الثالث آخر الأمراء الأغالبة . وربما يكون المصدر الأول أكثر انطباقا مع أخبار إسحاق بن عمران .

من القيروان ورقّادة مستشفى يمارس فيه الطب ويدرسه . فصار إلى جانب خدمته لأمير البلاد يعمل في الوقت نفسه في بيت الحكمة ، وفي معالجة المرضى بالمستشفى ، وفي عياداته الخاصة أيضا .

وخدم إسحاق بن عمران بعد الأمير إبراهيم الثاني ابنه عبد الله الثاني ثم زيادة الله الثالث (٢٩٠ – ٢٩٦ هـ / ٩-٣ – ٩٠٩ م) آخر أمراء الأغالبة . وكان هذا الأمير مضطرب الفكر ، وقيل كان مصابا بمرض نفسي . وربما كان إسحاق بن عمران بالمقابل ، متعاليا في تصرفاته ، أو كان عنودا مع الأمير مما سبب غضبه وسخطه عليه ، وإهانته له ، فأراد ابن عمران الرجوع إلى بغداد ، إلاّ أن الأمير منعه وضيق عليه حريته ، وحدث أن اغتابه أحد أطباء الأمير ، وهو يهودي من أصل إسباني ، وانتقده أمام الأمير على أسلوب معالجته في الطب وقلة تأدبه في حضرة أمير البلاد ، فزاد غضب الأمير على ابن عمران . وذات يوم استدعاه إلى ديوانه وأشار إلى خدمه أن يشدوا وثاقه ، ثم أمر بفصده . وبقي ابن عمران بهذا الوضع والدماء تنزف منه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة . وكان ذلك في حدود سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٦ م ويروى في تكملة هذا الخبر أن الأمير الحقود صلب جثمان ابن عمران في ساحة القيروان وتركه معلقا حتى عشش الطير في جوفه . عاش إسحاق بن عمران نحوا من عشرين سنة في القيروان ، وهناك احتمال كبير ، بل من البداهة أن تكون أفكاره العلمية قد نضجت في تلك الفترة المتأخرة من حياته ، وفيها وضع كل كتبه))[٨].

---

[٨] ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦ / ٣٣٢.

((وتعتبر آراؤه في مرض الماليخوليا من ذات تجاريبه . ومن المحتمل أن الكتاب الذي وضعه في هذا المرض كان من مشاهداته ودراساته على مريضه أمير البلاد الذي قيل أنه كان مصابا بهذا المرض ، أو بمثله . وفي كتابه المذكور معلومات واسعة عن أسباب الماليخوليا ، وأنواعها وأعراضها ، وطرق مداواتها ، ونقد ما كتبه الأولون فيها))[٩].

أما قائمة كتبه التي عرفت عناوينها فهي ١٥ كتابا منها :

١ . كتاب الماليخوليا : مخطوطة بمكتبة نحاس بحلب وميونخ . وقد نقلها قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية ونسبها إلى نفسه . أوطان ص ٥٣ ، وقد حقق الكتاب الدكتور شمس الدين حمودة بأطروحة نشرها في تونس سنة ١٩٧٩ .

٢ . كتاب في الفصد (مكتبة نحاس / حلب) . ٣ . كتاب في النبض (مكتبة نحاس / حلب) .

٤ . كتاب في طبقات العين . ٥ . رسالة إلى بعض إخوانه في حفظ الصحة وتدبيرها / ورد ذكرها في العقد الفريد ٦ /٢٣٢ لابن عبد ربه ، ومخطوطتها بمكتبة ميونخ .

ب – تلامذة إسحاق بن عمران :

قبل استعراض أسماء تلامذة إسحق بن عمران نقول إن الطب العلمي في ديار تونس لم يظهر إلاّ بعد أن دخلها إسحاق بن عمران البغدادي ويعتبر هذا الطبيب بحق مؤسس أول مدرسة طبية في تونس وأبا

---

[٩] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ،ص ٦٣١ .

أطبائها ، وباعث نهضتها الفكرية في العلوم النظريـــة والتطبيقيــة . أمـــا تلامذته فهم :

١ . إسحاق بن سليمان الإسرائيلي :

((ويعرف عند الأوربيين باسم إسحاق اليهـــودي Isaac Judaes وكنيته أبو يعقوب . ولد ونشأ بمصر ومارس صناعة الكحل فيها في أيـــام أحمد بن طولون (٢٥٤ – ٢٧٠ هـــ / ٨٦٨ –٨٨٤ م) . ثم سافر إلـــى القيروان قاصدا إسحاق بن عمران ، ودرس عليه الطب والحكمـــة . ثـــم رجع إلى موطنه في مصر . وكان ذا فطنة يقظـــة ، وعقليـــة مبتكـــرة ، وطموح في تحصيل العلم ، حتى أنه لم يتزوج طوال حياته التي دامت ما يقرب المائة سنة ، ليتفرغ إلى الدراسة ومتابعة الأفكار الجديدة في الطـــب وممارسته وتأليف الكتب فيه . كما كانت له منزلة دينية بين أبناء ملته من يهود إفريقيا والمغرب .

ولما وصلت سمعته الطبية إلى تونس استدعاه زيـــادة الله الثالـــث ليكون طبيبه الخاص خلفا لطبيبه إسحاق بن عمران الذي قتله كما مر ذكر ذلك . إلاّ أن الإسرائيلي لم يمكث في خدمة الأمير إلاّ أشهرا معدودات ، إذ هرب سيده وحاشيته من الأغالبة ، ليأخذ دعاة الفاطمية مكانهم فـــي حكـــم البلاد برئاسة عبيد الله المهدي . فانتقل الإسرائيلي إلـــى خدمـــة الحـــاكم الفاطمي عبيد الله ، ومن بعده إلى ابنه القائم وثم المنصور وأخيرا المعـــز لدين الله ٣٤١ – ٣٦٥ هـــ / ٩٥٣ – ٩٧٥ م قبل أن ينقل عاصمته مـــن المهدية إلى القاهرة بمصر .

توفي ابن سليمان الإسرائيلي بعد سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م . ومن أشهر تلاميذه ابن الجزار . وترك مؤلفات ذات قيمة تطبيقية عالية ، ترجم الكثير منها إلى اللغة اللاتينية من قبل قسطنطين الإفريقي ، كما ترجم بعضها إلى العبرية كان منها[١٠] :

١. كتاب الحميات : ويتكون من خمس مقالات . وقد ترجم قسطنطين الإفريقي هذا الكتاب إلى اللاتينية في حوالي سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠م ، كما ترجم الكتاب بعد ذلك إلى العبرية ، واختصره عبد اللطيف البغدادي بكتاب سماه (اختصار كتاب الحميات) .

٢. كتاب الأدوية المفردة : ترجمه قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية وترجم بعد ذلك إلى العبرية . ٣ - كتاب البول : وجد هذا الكتاب باللاتينية . وينسبه بعضهم إلى عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م كما وجدت نسخة باللغة العبرية . ولم يعثر على صيغته العربية . ٤ - كتاب الاسطقسات : ترجمه جيرارد الكريموني إلى اللاتينية ، والحاخام أبراهام السبتي إلى العبرية . ٥ - كتاب المدخل إلى صناعة الطب . ٦ - كتاب التعاريف : ترجمه قسطنطين الأفريقي إلى اللاتينية))[١١].

٢ - أبو بكر محمد بن الجزار عم أحمد بن إبراهيم ابن الجزار .

تلقى علم الطب في صغره عن إسحاق بن عمران وعن تلميذه إسحق ابن سليمان ، كما أخذ عن زياد ابن خلفون وعن غيرهم من أطباء

---

[١٠] قائمة كتبه في عيون الأنباء لإبن أبي أصيبعة ص ٤٨٠ -٤٨١ .

[١١] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٦٣٣ - ٦٣٥ .

بني الأغلب ، وقد وصفه ابن أخيه وتلميذه أحمد في تأليفه (نصائح الأبرار) ، فقال ((كان عمنا عالما بالطب حسن النظر فيه)) . وقد عالج أبو بكر ابن الجزار المهدي عبيد الله في مرضه الذي مات به . وكانت وفاة أبي بكر في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة وقد تجاوز السبعين من العمر[١٢] .

٣ - علي بن إسحاق بن عمران :

((كان طبيبا بالقيروان وهو ابن إسحاق بن عمران المتقدم الذكر . وكان وذا مكانة عند رجال الدولة العبيدية ، إذ كان يخلف صاحب القيروان عند غيابه))[١٣].

٤ - زياد بن خلفون :

((لا يعرف أصل ابن خلفون ، وقد يكون أبوه من الموالي الصقالبة أو الصقليين ، أو أحد الوافدين إلى القيروان التي كانت يومئذ تجتذب تجار الرقيق وأصحاب الحرف . درس الطب على إسحاق بن عمران . وزامل إسحاق بن سليمان الإسرائيلي في خدمة زيادة الله الثالث وعبيد الله المهدي . وقد كان أثيرا عند مخدومه الأخير عشر سنوات متوالية حتى اغتاله بعض حساده في القيروان في سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م))[١٤].

---

[١٢] ورقات من الحضارة التونسية : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص ٢٤٠ .

[١٣] بن ميلاد ، الحكيم أحمد : الطب العربي التونسي ، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ، ١٩٨٠ ، ص ٣٧ .

[١٤] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٦٣٧ .

٥- دنش بن تميم :

((يكنى بأبي سهل ، ويسميه أصحابه (أدنيم) ، كما يلقب بالتفلجي الإسرائيلي . وهو اسم لا نعرف له معنى . أصل أهله من العراق ، قدموا في أيام الأغالبة إلى القيروان بقصد المتاجرة . وفي القيروان ولد دنش وفيها نشأ على العلم ، فدرس الطب على إسحاق بن سليمان الإسرائيلي وكان يومئذ يصغر معلمه بعشرين سنة . كما درس عليه الفلسفة والحساب وعلم الفلك واللغة العبرية ، وتفقه في الشريعة الموسوية حتى صار معتمد يهود العراق ومصر واسبانية في الفتوى بالأمور الدينية . والتحق دنش ، بعد انقراض دولة الأغالبة ، بالبلاط الفاطمي في المهدية وخدم فيه المنصور والمعز لدين الله وألف لهم الكتب في الطب والنجوم ، وكان يحصل منهما على أجزل العطاء والتقدير . ويشاع أنه دخل الإسلام ، إلاّ أنه لم يلتحق بركب المعز حين انتقل هذا من المهدية إلى القاهرة ، وفضل البقاء في موطنه بالمهدية .

ومما هو جدير بالذكر أن لغة دنش كانت جيدة وبليغة في العربية مثلما كانت في العبرية . وله كتاب في المقارنة بين اللغتين المذكورتين كتبه بالعربية سوى بعض الكلمات العبرية القليلة فيما بين فقراته . توفي دنش التميمي في حوالي سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، وله مؤلفات في العلوم الطبية هي : ((١ - كتاب التلخيص في الأدوية المفردة ٢ - كتاب في الفلك وحركة الكواكب ٣ - كتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار)) [١٥].

---

[١٥] المصدر نفسه، ج ١ ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨ .

٦ – أحمد ابن الجزار :

((هو أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد ابن الجزار ، وكنيته أبو جعفر ، وهو ثالث الأطباء الذين اشتهروا في تونس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . عرفت أسرته المسلمة باشتغالها بالطب إذ كان أبوه إبراهيم بن أبي خالد ، وكذلك عمه أبو بكر محمد بن أبي خالد من الأطباء الممارسين . إلاّ أن شهرة أحمد بن الجزار الواسعة وأعماله الضخمة في التأليف قد غطت على مكانة أبيه وعمه وصار أكثرهم شهرة باسم ابن الجزار .

وكانت القيروان ورقّادة ، إبان ولادة أحمد بن الجزار ما زالتا تتمتعان بالنهضة الأدبية والعلمية التي بدأت في حكم الأغالبة بالرغم من انتقال حكام البلاد الفاطميين إلى عاصمتهم الجديدة المهدية . فنشأ ابن الجزار متفتحا على ما يدور بين الأدباء والمؤرخين والأطباء من أبحاث وفنون . وكان أبرز الممارسين في صناعة الطب آنذاك أبوه وعمه وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي وزياد بن خلفون ، فتعلم عليهم الصناعة . وكان من طلابهم النابهين ، وكان كثير القراءة والمتابعة وقوي الملاحظة على الحالات المرضية . فلما تخرج عليهم شيد سقيفة إلى جانب داره يستقبل بها مراجعيه من المرضى ، وزودها بأنواع الأدوية المفردة والمركبة . وعين غلامه رشيقا صيدلانيا فيها وكان له معروف على المرضى الفقراء ، فيفحصهم ويزودهم بالدواء مجانا فاشتهرت أعماله بالمديح ، وذاع اسمه بين الناس ، وصار يقصده المرضى من كل الطبقات ، وكذلك طلاب العلم ليستمعوا إلى دروسه ويشاهدوا طريقة

ممارسته في الصنعة))[١٦]. توفي ابن الجزار في القيروان بحدود ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ م وترك ثروة ضخمة تقدر بأربعة وعشرين ألف دينار ، وخزانة كتب فيها خمسة وعشرون قنطارا من المخطوطات .

ومن تلاميذ ابن الجزار أبو حفص بن بريق الأندلسي ، ومؤلفاته كثيرة (٣٣ مؤلفا) إلاّ أن أغلبيتها تعد من المفقودات نذكر منها :
١ - كتاب الخواص : وله ترجمة بالعبرية وأخرى لاتينية .
٢ - كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة ، ترجمه للاتينية الراهب إسطيفن السرقسطي سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م كما ترجمه قسطنطين الأفريقي ونسبه لنفسه . ٣ - كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر : هذا أهم كتب ابن الجزار التي وصلت الينا . وهو بمجلدين في صنوف الأمراض الباطنة والظاهرة ، ترجمه قسطنطين الأفريقي للاتينية ، وإلى العبرية موسى بن طبون وطبعت نسخته اللاتينية في بازل سنة ١٥١٦ م . ٤ - طب الفقراء والمساكين ، ترجم للعبرية . ٥ - طب المشايخ وحفظ صحتهم . ٦ - كتاب المالينخوليات . ٧ -- مقالة في الجذام ، ترجمها للاتينية قسطنطين الأفريقي . ٨ - سياسة الصبيان وتدبيرهم : وهو كتاب باثنين وعشرين بابا يبحث في تدبير المولودين في حالتي الصحة والمرض . من مخطوطاته واحدة في الإسكوريال ، وأخرى في تاتيانا ، وقد حققه محمد الحبيب الهيلة ونشره في تونس سنة ١٩٧٩ ٩- كتاب مداواة النسيان وطرق تقوية الذاكرة : ولهذا الكتاب ترجمة لاتينية . أما صيغته العربية فتعد من المفقودات .

---

[١٦] المصدر نفسه، ج ١ ، ص ٦٤١ - ٦٤٢ .

٧- قسطنطين الأفريقي (١٠١٥ أو ١٠١٦ - ١٠٨٧ م) .

ولد بقرطاج وفي هذا القرن انتقل سكان قرطاج إلى تونس . واختلف المؤرخون في بيان ديانته ، أكان مسلما أو مسيحيا ، فقد ذهب حسن حسني عبد الوهاب إلى أنه مسيحي . ليس في التراثيات العربية ذكر لطبيب بهذا الاسم ، لا في تونس ولا في أي بلد إسلامي ، في حين تذكره المصادر اللاتينية والأوربية بتكرار وتركيز ووضوح على أنه طبيب مسلم من مواطني تونس نزح إلى ايطالية أول مرة بصفته تاجرا قادما من صقلية وحل ببلدة ساليرنو . وعاد إلى قرطاج واشتغل بالطب ثلاث سنوات وجمع عدة كتب في الطب وسافر ثانية نحو ايطالية حاملا الكتب التي فقد بعضها في البحر ، ووصل بما تبقى إلى ساليرنو واعتنق الدين المسيحي ثم حل بدير كسينوا واشتغل بالترجمة وتسمى باسم قسطنطين . ولا يذكرون ما هو اسمه قبل تنصره .

على الرغم من شهرة قسطنطين مترجما إلاّ أنه من المرجح أنه لم يشتهر ممارسا الطب ، كما أن من المرجح أنه لم يكن يحسن اللغة اللاتينية التي ترجم إليها الكتب العربية ولذلك كان يستعين بتلميذه أو زميله (أفلانيوس) ومع ذلك كانت المترجمات على قدر من التفكك والركاكة على أنها كانت في الوقت نفسه لامعة وجذابة بين الكتب الأخرى في مدرسة ساليرنو . ويؤخذ على قسطنطين انتحاله لنفسه بعض الكتب العربية التي ترجمها ولم يشر الى مؤلفيها . لقد زاد عدد مترجمات قسطنطين الأفريقي على ثلاثين كتابا نقلها جميعا إلى اللغة اللاتينية ، نذكر منها :

١- كتاب المالينخوليا لإسحاق بن عمران . ٢ - كتب النبض والبول والحميات والأغذية لإسحاق بن سليمان . ٣ - كتاب زاد المسافر لابن الجزار القيرواني . ٤ - كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي .٥- كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي[١٧] .

ج - أطباء القيروان الآخرون :

١ - ابن ظفر :

((هو الفضل بن علي بن ظفر . من الأطباء الأدباء في القيروان في أيام الأغالبة . ولم يعرف أحد من شيوخه إلاّ أنه كان يتردد على دار الحكمة في رقّادة ، فلابد أنه أخذ عن أساتذتها وغيرهم . وقد نجح في ممارسة الصنعة ، وصار له جاه عند الأمراء والحكام . ولأنه كان يناهض الحركة الفاطمية فلا نعتقد أنه دخل في حاشية عبيد الله المهدي أو أخلافه . توفي ابن ظفر في خلال سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م بعد مرض حجبه عن العمل أعواما))[١٨].

٢ - موسى بن العازار :

((طبيب يهودي يحتمل أن يكون أصله من مدينة أوريا ORIA التي سماها العرب (وارى) ، بجنوب إيطاليا . غنمه الفاطميون في إحدى غزواتهم لتلك البلاد سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م . وقد يكون قد تعلم شيئا من

---

[١٧] اقرأ عنه ابن ميلاد ، الحكيم احمد - الطب العربي التونسي ص ٨٢ - ٩٠ ، السامرائي ، مختصر تاريخ الطب ج١ ص ٦٤٧ - ٦٤٩ ، ج٢ ص ٢١٩ - ٢٢١ .

[١٨] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٦٣٧ .

الطب قبل أن يدخل المهدية ، أو أنه درسه فيها على الصغر . وقدم الخدمة فيها للخليفة المنصور ثم المعز لدين الله . وكان الطبيب المفضل عند المعز ، فيرافقه في حله وترحاله . ويعمل له الأشربة والمعاجين والترياقات . وكان عارفا بالأدوية المفردة ويجيد تراكيبها)) . ((كما له دراسة بطب العيون ومعالجات ناجحة فيها مارسها بالقيروان .

توفي موسى بن العازار بعد سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٦ م والراجح أنه عمر حتى المائة سنة أو أكثر. وأعقب أبناء وأحفاداً امتهنوا صناعة الطب أيضا ، وكانوا كلهم في خدمة الفاطميين . ولموسى من التآليف في الطب :

١ - كتاب المغزى في فن الطبخ : وضعه لمخدومه الخليفة المعز لدين الله
٢ - مقالة في السعال . ٣ - كتاب الأقرباذين))[١٩].

٣ - عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي أبو مروان (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) :

أخذ علم الطب في مصر والقيروان وعاد إلى الأندلس حيث تفرغ لمزاولة مهنته ، وهو رأس أسرة أنجبت عددا من مشاهير الأطباء وتألقوا في الأندلس نحوا من ثلاثة قرون))[٢٠].

٤ - عمر بن جعفر بن بريق :

أبو حفص ، كان طبيبا نبيلا قارئا للقرآن ، رحل إلى القيروان حيث لزم الطبيب أبا جعفر أحمد بن الجزار (حوالي ٣٩٠ هـ /

---

[١٩] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٦٣٩ - ٦٤٠ .

[٢٠] الخطابي ، محمد العربي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية - دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨ ج ١ ، ص ٥٢ .

١٠٠٤ م) ، وهو الذي أدخل إلى الأندلس كتابه ((زاد المسافر وقوت الحاضر)) خدم بصناعة الطب الخليفة عبد الرحمن الناصر[٢١].

المحور الثاني : الدمنة (مستشفى) القيروان :

التسمية والإنشاء :

يقول الحكيم أحمد بن ميلاد : ((يتجلى بوضوح ومن التحقيقات أن (ربض المرضى) أو (حي الدمنة) و (الدمنة) كانت لسكنى أهل العاهات بمعنى المجذومين خارج المدن لاجتناب العدوى وحفظ صحة السكان))[٢٢].

في حين يؤكد المؤرخ الشهير حسن حسني عبد الوهاب ((أن الدمنة بالقيروان هي المستشفى نفسه ودار الجذماء بداخله وقسم من أقسامه))[٢٣].

ويبدو أن تسمية (الدمنة) غلبت تسمية المستشفى في القيروان ، وهو اسم الموضع الذي شيد فيه أول مستشفى فيها . وقد لا يكون في هذا كثير غرابة بالنسبة لمدينة القيروان نفسها ، ولكن الغريب هو أن كل مستشفى بعد ذلك في أي بلد من بلدان (القطر التونسي) سمي (دمنة) أيضا ، فقد سميت مستشفيات سوسة ، صفاقس ، وتونس دمنة كذلك تقليدا لعاصمة البلاد وإتباعا لرسومها في التسميات .

---

[٢١] ابن جلجل ، أبي داؤد سليمان : طبقات الأطباء والحكماء – مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٧ .

[٢٢] بن ميلاد : ص ١٧٣ .

[٢٣] ورقات من الحضارة التونسية : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص ٢٧٣ .

((والدمنة أنشئت في القيروان لأول مرة في عهد الدولة الأغلبية وفي إمارة زيادة الله الأول أو الأكبر والتي كانت سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ – ٨٣٥ م . لأنه وجد أن هذا الأمير في مقدمة من زار من الأمراء مؤسسة الدمنة وأنه كان يشملها بعطفه ويحيطها برعايته ، ولم ير من آل بيته من يتعهدها قبله بالزيارة ، لذلك السبب يغلب على الضن أنه هو الباني الأول لمرستان القيروان))[٢٤].

البناء :

كانت بنايته في شكل مربع أو مستطيل الأضلاع يدخل إليها من باب واحد صحن واسع ((يحيط بجوانب الصحن الثلاثة أو الأربعة أروقة (مجنبات) معقودة السقوف ، ومن ورائها عدة حجرات صغيرة بسيطة معدة لإيواء المرضى)) ويقدر عدد تلك الغرف بما لا يتجاوز الثلاثين غرفة . يشغل كل واحدة منها المريض الواحد والمريضان أو أكثر ، وأن مساحة كل غرفة كانت ستة أذرع طولا في أربعة عرضا أو ما يقرب من ذلك ، وكان الباب يؤدي إلى دهليز مستطيل معقود السقف ينتهي إلى الرواق أو المجاز وكان في أول الدهليز– على جانبيه – غرفتان صغيرتان أو أكثر يسكنها حارس أو حراس الدمنة ، وفي بقيته يمينا وشمالا مصطبتان قصيرتان ملتصقتان بالجدار الأصلي ، يحبس عليهما العواد عند زيارتهم للمرضى وكان في وسط الرواق المواجه للمدخل مكان مسجد صغير لإقامة الصلوات للمقيمين بالدمنة [٢٥].

---

[٢٤] المصدر نفسه، ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .

[٢٥] المصدر نفسه، ص ٢٧٥ – ٢٧٧ .

ويبدو أن هذا لم يكن مسجدا وحسب ، وإنما هو إيوان اتخذ لنفس الأغراض التي اتخذ لها إيوان دور الشفاء في المشرق العربي كقيام الساعور وبقية الأطباء بفحص المرضى الخارجيين وتوزيع الطعام والأدوية للمرضى الراقدين [٢٦].

وكان في جهة أحد الأروقة باب مستقل يدخل منه إلى دار فسيحة تحتوي على حجرات لا ندري عددها ، تسمى (دار المجذومين) لا يقيم بها إلاّ من كان مصابا بالجذام .

وذلك لحجر المجذومين ومنع الاختلاط بهم للحد من انتشار المرض . وكان في الدمنة يوجد حمام مستقل يغشاه أهلها لتطهير أبدانهم . وكان يستمد الحمام الماء اللازم من بئر عميقة واسعة موجودة في داخل بنائها . وكان فيها صهريج تتجمع فيه مياه المطر تستعمل طول السنة للشراب وطبخ الأطعمة [٢٧].

الإنفاق على الدمنة :

يبدو أن الدمنة لم يكن لها أوقاف للإنفاق عليها ، لذلك وجدنا أن الأمراء كانوا يوزعون بأنفسهم العطايا الوافرة على أهل الدمنة ، أو يرسلونها إليهم مع مواليهم وأتباعهم ، وكذلك كان يفعل أهل الفضل

---

[٢٦] محفوظ ، ناجي : مقارنة بين مستشفيات بغداد والقيروان ، بحث قدم في الحلقة الدراسية (الطب والصيدلة في المغرب) – مركز إحياء التراث العلمي العربي / جامعة بغداد ١٦-٥-١٩٩٠ .

[٢٧] ورقات من الحضارة التونسية : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص ٢٧٥ .

والخير ، إذ يتبرعون دواما واستمرارا بصدقات من المال ومن الأطعمة من لحم وزيت وخبز على من بها [٢٨].

المعالجة وتدريس الطب :

في عهد الأغالبة كان طبيب الدمنة المشهور (زياد بن خلفون) يخرج إليها في أيام معينة فيزور من بها ، وكذا من بدار الجذماء للكشف عن المصابين وتتبع سير مرضهم وعاهاتهم [٢٩].

وكان فقهاء البدن (وهم أطباء ولعلهم كانوا يجمعون بين الفقه والطب) يزورون الدمنة أيضا ، ويباشرون مرضاها ويتفقدونهم ويصفون لهم من الأدوية ما يناسب علاجهم ، ويعتنون بهم احتسابا لله ورجاء مرضاته [٣٠] .

وأحسب أن قيام هؤلاء بهذه الخدمات ، كان في وقت انقطاع الإنفاق على المستشفى ، كما يحدث عند موت صاحبه أو توقفه عن الإنفاق عليه ، أو أنه لم يقف عليه من الأوقاف ما يقوم بنفقاته وفي الدمنة كان نساء زنجيات من السودان يخدمن المرضى ويقمن لشؤونهم الضرورية في الغرف وخارجها [٣١].

لم يذكر شيء عن تدريس الطب في الدمنة ، وهذه نتيجة محتومة لفقدانها موردا ثابتا للإنفاق عليها ، والشرط الملزم لتدريس الطب فيها ،

---

[٢٨] المصدر نفسه، ص ٢٧٨ .

[٢٩] المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ .

[٣٠] المصدر نفسه، ص ٢٧٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ .

[٣١] المصدر نفسه، ص ٢٧٨ .

فحتى مع وجود الطبيب الأستاذ وعزمه على التدريس احتسابا لله تعالى فإنه يقوم بتدريسه في بيته .

المحور الثالث – بيت الحكمة :

يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : كان إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ – ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ – ٩٠٢ م) يهوى دراسة العلوم والاتصال بالعلماء ، فأسس مدينة الرقّادة لتكون العاصمة العلمية لدولته إلى جانب القيروان العاصمة السياسية القريبة منها . كما أسس في الرقّادة مركزا مثيلا لبيت الحكمة في بغداد ، أطلق عليه اسم بيت الحكمة أيضا تيمنا بسميتها العباسية(٣٢).

وعين لها ناظرا سماه صاحب بيت الحكمة ليدير شؤونها الإدارية وجمع لها نفائس الكتب ، وآلات الرصد والتحفيات النادرة ، وضم إليها أكابر العلماء والأطباء والمترجمين . بينما يقول الأستاذ عثمان العكاك : أن الذي أسس بيت الحكمة بالقيروان ، هو زيادة الله الثالث (٢٩٠ – ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ – ٩٠٨ م) وكان بيت الحكمة قريبا من الجامع الكبير واقعا على السماط الأعظم الذي هو الجادة الكبرى الرئيسية بالقيروان .

وفيه مكتبة ودار ترجمة وتأليف ، ومعهد لتدريس علوم الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والهندسة والنبات والموسيقى وغيرها (٣٣).

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٩٣ .

(٣٣) الديوه جي ، سعيد : بيت الحكمة ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – الموصل ١٩٧٢ ، ص ٤ .

والراجح أن الفكر الطبي الذي جهد له إسحاق بن عمران وتلامذته لم يثمر وينتشر إلاّ بعد تأسيس بيت الحكمة في الرقّادة .

وكان من عادة الأمراء الأغالبة أن يجددوا الولاء لخلافة بغداد مرة أو مرتين في كل عام . فكان إبراهيم الثاني يكلف وفود الولاء إلى بغداد أن يجمعوا له الكتب الأصيلة والمترجمة التي يجدونها في العراق وسوريا ومصر ، ويغرون العلماء بالمال لينزحوا إلى تونس ويخدموا فيها بعلومهم وصنائعهم . والمعروف أن كلا من الأمير إبراهيم الثاني وابنه عبد الله الثاني وحفيده زيادة الله الثالث قد سكن بعض الزمن في صقلية ، وعايش أهلها ، وتعلم لغتهم (اللاتينية)[٣٤].

وهذا ما يفسر رغبة هؤلاء الأمراء وأتباعهم في نقل الكتب اليونانية واللاتينية إلى بيت الحكمة وترجمتها إلى العربية . وكان من جملة تلك الكتب التي ترجمت كتاب بلينس Plinus [٣٥] في النبات الذي صار مرجعا مهما للعشابين التونسيين قبل أن يصل إليهم كتاب ديسقوريدس بترجمة أطباء قرطبة أو بترجمة أطباء بغداد .

بقي بيت الحكمة في الرقّادة يؤدي دوره الكبير في صنوف المعرفة حتى استيلاء عبيد الله المهدي سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م على البلاد التونسية ، فحوله إلى مركز لبث الدعوة الفاطمية الإسماعيلية لصالح العبديين . فلم ير علماء المعهد بعد أن انتفت الغاية العلمية من وجودهم فيه إلاّ الهجرة إلى خارج البلاد فتفرقوا إلى الأندلس ومصر ومدن الشام .

---

[٣٤] ورقات من الحضارة التونسية : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص ١٩٦ ، ٢٠٠ .

[٣٥] المصدر نفسه، ص ٢٠٢ .

وهكذا انتهى أمر بيت الحكمة في تونس بعد خدمة دامت أكثر من أربعين عاما في ترجمة الكتب اللاتينية والبربرية إلى العربية وتدريس العلوم التطبيقية للمتعلمين ، والعمل في البحث العلمي في الطب والعلوم الأخرى [٣٦].

المحور الرابع – انتقال الطب العربي إلى أوربا عبر تونس :

كان العلم اللاتيني في أوربة لحظة وصول العرب المسلمين إلى إسبانية في القرن الثامن الميلادي ، ومن ثمة إلى صقلية وجنوب ايطالية وجنوب فرنسة ، قد أصابه البوار والركود العلمي ، ويرقد في ما شاعت تسميته (ظلام القرون الوسطى) . فكان وصول العرب المسلمين بمثابة عاصفة هزت البنى الراقدة ، وبعثت الحياة في ذلك السبات وأحدثت تغييرا نوعيا في اتجاهات الفكر الأوربي ومدت أمامه آفاقا جديدة على طريق التطوير والإبداع.

وكانت صقلية تعيش التأخر والجهل قبل أن يفتحها العرب المسلمون وقد تم فتحها أيام بني الأغلب في أوائل القرن الثالث الهجري نحو سنة (٨٧٧هـ) بقيادة أسد بن فرات . ومن ثم وبعد أن مدنوها أصبحت أهم المراكز لنشر الثقافة العربية الإسلامية في أوربة .

وكان المركز الثاني بعد طليطلة – وإن كان أقل أهمية منه – لجمع المؤلفات هو البلاط النورماندي في باليرمو ، وفي هذا المركز قامت مدرسة للترجمة عن العربية .

---

[٣٦] السامرائي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٦٢٨ .

وأنشأوا في باليرمو العاصمة أول مدرسة للطب في أوربة ومنها انتشر الطب إلى إيطالية . وكدليل على التأثير الفاعل للثقافة العربية في إيطالية في تلك الحقبة إنشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية في جنوة ، وإدخال كثير من الألفاظ والاصطلاحات العربية إلى اللغة الإيطالية . وكان تسامح الحكام المسلمين في صقلية كعادتهم في كل مكان حلّوا فيه عاملا مباشرا في ازدهار الثقافة والفنون والعلوم فيها حيث شملت لغات العالم العلمية الثلاث في ذلك الزمان وهي اللاتينية واليونانية والعربية . وتم نقل المؤلفات من لغة إلى أخرى وبذلك أصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات وصاحبة مَدنية لاتينية يونانية عربية فريدة امتدت حتى آخر القرن ١٣ ، وهو بداية التأثير العميق للثقافة العربية الإسلامية ونشوء حركة الاستعراب الفعالة في أوربة[٣٧].

إن موقع تونس الجغرافي جعل بيت الحكمة فيها حلقة وصل بين علوم المشرق والمغرب من جهة ، وبين هذين الطرفين وأوربة من جهة ثانية . وبذلك أتاح هذا الوضع لبيت الحكمة أن يؤدي دورا خطيرا في تنشيط الفعاليات العلمية ، وتبادل المعارف ونشرها بين تلك الأمصار .

فكانت كتب الرازي والمجوسي ، وابن سينا ، ومترجمات حنين ابن إسحاق تدخل إلى تونس قبل أن تصل إلى الأندلس وهكذا فيما يخص كتب الأندلس والمغرب التي تنقل إلى مصر . كما كانت تونس الموقع الذي خرجت منه العلوم العربية في الطب لتصل إلى صقلية وإيطالية ،

---

[٣٧] محمد ، الدكتور محمود الحاج قاسم : إنتقال الطب العربي إلى الغرب معابره وتأثيره ، دار النفائس – بيروت ص ٧٢، ٤٧ .

وتدخل كأحد مقررات الدراسة في مدارسها الناشئة وجامعاتها التي استحدثت فيما بعد .

والأمانة العلمية تفرض علينا أن نعد من المزايا الكبرى لبيت الحكمة الأغلبي أنه أوجد النواة الأساسية للمدرسة الطبية المشهورة في تاريخ العلوم (المدرسة القيروانية) التي انتشر تأثيرها مدة ثلاثة قرون متوالية ، ومنها انبثقت حركة التعليم والتأليف في المادة الطبية في عموم بلاد المغرب ، ثم انتقلت كتبها ونتائج أبحاثها إلى جنوب إيطاليا ومنها إلى بقية أوربة [٣٨] .

ومن دون دون شك أن بيت الحكمة هو الذي التي أوحى للأوربيين ترجمة المؤلفات التونسية ، وكتب بغداد التي كان يتداولها أطباء هذا المعهد ، إلى اللغة اللاتينية والعبرية . وكتب معاهد التدريس والجامعات العلمية هي دوما أفضل المؤلفات في التعليم والتطبيق . ومن هذا يمكن أن نعزي ترجمة كتب إسحاق بن عمران وتلميذه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي إلى العبرية واللاتينية إلى كونهما كانتا من كتب التدريس في بيت الحكمة بالإضافة للأسباب التي سقناها فيما تقدم [٣٩].

وقد سبق أن ذكرنا قوائم الكتب المترجمة للاتينية والعبرية لإسحق ابن عمران وتلاميذه وأطباء القيروان الآخرين ، لا نرى موجبا لتكرار ذلك .

---

[٣٨] ورقات من الحضارة التونسية : مصدر سابق ، القسم الأول ، ص ٢١١ .

[٣٩] المصدر نفسه ، ص ٦٢٧ – ٦٢٨ .

الأستاذ الجامعي والبحث العلمي في الألفية الثالثة
(كليات التربية أنموذجا)

الدكتور مفيد الزيدي
كلية الآداب والعلوم
جامعة عمر المختار ـ ليبيا

الملخص :

تحتل الجامعات حيزا كبيرا في هيكل المجتمعات المعاصرة بما تمثله من مراكز للعلم والبحث والتفكير لكونها تؤسس مجتمعا علميا يهتم بالبحث عن الحقيقة ووظائفها الأساسية وهي التعليم والبحث العلمي وخدمة المجتمع .

وتتمحور وظائف الجامعة لتصبح مراكز الإشعاع الحضاري وتدور وظائفها في إعداد الملاكات الفنية المتخصصة وقيادة التقنيات الحديثة والتدريب والتطوير في مجال البحث العلمي وتوفير الملاكات والهيئات التدريسية الكفوءة .

أما الأستاذ الجامعي فهو عماد المؤسسة الجامعية وهو المفكر والتربوي والمعلم وصاحب الرأي الحر الذي يشقى بعقله من اجل توعية الآخرين وهو القارئ للمستقبل والمعبر عن هموم المجتمع وهو الفيلسوف والمؤرخ واللغوي والاقتصادي والتربوي والقانوني والعالم في الاختصاصات التطبيقية الذي يعمل داخل الجامعة في كلياتها وأقسامها ومراكز البحوث فيها .

الأستاذ الجامعي والبحث العلمي في الألفية الثالثة
(كليات التربية أنموذجا)

الدكتور مفيد الزيدي
كلية الآداب والعلوم
جامعة عمر المختار ــ ليبيا

الملخص :

تحتل الجامعات حيزا كبيرا في هيكل المجتمعات المعاصرة بما تمثله من مراكز للعلم والبحث والتفكير لكونها تؤسس مجتمعا علميا يهتم بالبحث عن الحقيقة ووظائفها الأساسية وهي التعليم والبحث العلمي وخدمة المجتمع .

وتتمحور وظائف الجامعة لتصبح مراكز الإشعاع الحضاري وتدور وظائفها في إعداد الملاكات الفنية المتخصصة وقيادة التقنيات الحديثة والتدريب والتطوير في مجال البحث العلمي وتوفير الملاكات والهيئات التدريسية الكفؤة .

أما الأستاذ الجامعي فهو عماد المؤسسة الجامعية وهو المفكر والتربوي والمعلم وصاحب الرأي الحر الذي يشقى بعقله من اجل توعية الآخرين وهو القارئ للمستقبل والمعبر عن هموم المجتمع وهو الفيلسوف والمؤرخ واللغوي والاقتصادي والتربوي والقانوني والعالم في الاختصاصات التطبيقية الذي يعمل داخل الجامعة في كلياتها وأقسامها ومراكز البحوث فيها .

ومن هنا توجد معادلة علمية ترفع في الجامعات العالمية المتقدمة تقوم على أساس لا وجود للأستاذ الجامعي من دون البحث العلمي ولا وجود للبحث من دون الحرية العلمية ولا جامعة بدون حرية جامعية . أذن المحصلة إن الجامعة هي الأستاذ وهي البحث العلمي وهي الحرية العلمية ثلاثية مترابطة في هذا المجل البحثي .

على هذا الأساس يتناول بحثنا إشكالية الأستاذ الجامعي والبحث العلمي في الألفية الثالثة من خلال (دراسة حالة في كليات التربية) بالاعتماد على خبرات عملية للباحث في الدرس والتدريس في كليات التربية ثم كليات الآداب في جامعتي الموصل وبغداد في العراق وبعض الجامعات العربية في الدراسات الأولية والتدريس والأشراف والمناقشات في الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه .

ويتضمن البحث أولا التعريف بالجامعة ووظائفها ثم ثانيا التعريف بالأستاذ الجامعي وثالثا أهمية البحث العلمي عند الأستاذ الجامعي ورابعا الإشكاليات في البحث العلمي في كليات التربية ثم خامسا المعالجات والحلول لمواجهة أزمة البحث العلمي في كليات التربية مع طرح الباحث للرؤى المستقبلية لإيجاد حلول لهذه المعضلات من اجل الدفع بالبحث والتأليف إلى الأمام في كليات التربية بشكل خاص في الألفية الثالثة حيث التطوير والبحث والتقنية وثورة المعلومات وتحدياتها ، ويعتمد البحث على عدد كبير من المراجع العربية والأجنبية من كتب وبحوث ودراسات حديثة متخصصة في هذا المجال المعرفي والتربوي .

المقدمـــة :

تحتل الجامعة حيزا كبيرا في هيكل المجتمع المعاصر بما تمثله من مواطن أساسية للعلم والفكر ومراكز للثقافة والمثقفين إذ تتلاقح فيها الأفكار ، وتنتعش المناظرات وتحتدم المجادلات وتصهر الآراء والطروحات ، وتنتعش الحوارات وتنجز البحوث والدراسات وتكتشف الابتكارات وتشذب القيم وتتسامى المبادئ والقيم .

ولما كان الأستاذ الجامعي المحور الأساسي للعملية التربوية والتعليمية، فلا بد من توافر المناخ الملائم والإمكانات المادية والعلمية ، والحريات الجامعية في البحث العلمي والإدارة الحرة والتعبير الفكري حتى يستطيع هذا الأستاذ أن يقوم بوظائفه ، ويؤدي واجباته ويبدع في تخصصه . وتركز هذه الدراسة على واقع البحث العلمي والجامعي في كليات التربية في الألفية الثالثة ، قرن التحديات والتقنيات والبناء المعرفي والصراع الحضاري ، من خلال استخدام منهج التحليل للأسباب والعلل الكامنة وراء أزمة البحث العلمي ومحاولة الخروج بالتوصيات والتوصيفات الفكرية والعلمية ، واستشراف مستقبل الجامعات في مستقبل الأيام .

أولا : في وظائف الجامعة العصرية :-

تؤدي الجامعة اليوم وظائف متعددة فاعلة وحيوية في حركة المجتمع العصري ، إذ تشكل مختبرات للفحص والاجتهاد العلمي ، والتعبير الفكري ، والمناظرة الثقافية ، والبحث عن الحقيقة ، والعمل على تحديث المجتمع ، وربط الجسور بين الإنسان المتعلم والمجتمع . فالجامعة لم تعد محصورة في إطار العمل العلمي فحسب بل بدأت تساهم بشكل فعال في

عملية البناء والتنمية ، ونقل المجتمعات من التخلف والتبعية الفكرية إلى مرحلة النهوض والاستقلالية فتقوم بأدوار كثيرة عن طريق ملاكاتها وقياداتها الإدارية والعلمية من أجل رفد المجتمعات بالكفاءات والخبرات الفنية المؤهلة تأهيلا علميا للمساهمة في حركة التنمية والتحديث.

وقد وصف العالم رسبوسو Resposo الجامعة بأنها تمثل مجتمعا علميا يهتم بالبحث عن الحقيقة ، وأن وظائفها الأساسية تتمثل في البحث والتعليم وخدمة المجتمع وتنمية أفراده ، وتنمية طاقاته ووسائله ، وتنمية الموارد البشرية ، والحفاظ على الثقافة والهوية الوطنية [١]. وتساهم مؤسسة الجامعة في وظائف أخرى كنقل المجتمع من التخلف إلى الحداثة ، ونقل الاتجاهات والمهارات العلمية من مجتمع إلى آخر ومن جيل إلى جيل ، وبذلك تعمل على إنماء المعرفة العلمية من مجتمع إلى آخر ، ومن جيل إلى جيل ، وبذلك تعمل على إنماء المعرفة العلمية ، وتنمية روح البحث العلمي وترسيخ القيم الخلقية في أفراد الجيل القادم وتطوير قابليات الطلبة ، وقدراتهم وتعزيز شخصياتهم العلمية والوطنية[٢].

---

[١] أنظر أيضا : Jaspers, Kari, the Idea of the University, London, ١٩٥٥, pp.(١٣-٢٠) عبد الله بوبطانه (الجامعات وتحديات المستقبل مع التركيز على المنطقة العربية) ، الكويت ، مجلة عالم الفكر ، مج١٩ ، ع١٢ ، أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ ، (ص٩٥-٩٧) .

[٢] Michael Brawne(ed).University Planning and Design .New York ١٩٧٠ pp(٩٨-١٠٢) معن خليل عمر (الجامعة الثالوث المتناقص في المجتمع العربي) مجلة الباحث س١١،ع٥٤، نيسان - حزيران (أبريل-يونيو) ١٩٩٢ ، ص (١٢٢ ، ١٢٥ - ١٢٦) .

وشهدت العقود الأخيرة من هذا القرن ازدهار التقنية الحديثة ، وثورة ميدان المعلومات ، فتطورت وظائف الجامعة في مواجهة تحديات التقنية الحديثة ، ومواكبة الابتكارات والاختراعات الجديدة ، واللحاق بركب الحضارات الحديثة ، وترسيخ الإعداد العلمي والإنساني للجامعيين .[٣]

وهكذا تمحورت وظائف الجامعة العصرية ومنها كليات التربية لتصنع منها مراكز إشعاع حضارية ، وأداة لبناء المجتمع الجديد . وتدور هذه الوظائف بشكل أساسي حول الآتي:

١- أعداد الملاكات الفنية المتخصصة .

٢- قيادة التقنية الحديثة وثورة المعلومات .

٣- التدريب والتطوير في مجال البحث العلمي .

٤- تقديم الخدمات إلى المجتمع في شتى الميادين .

٥- توفير الملاكات والهيئات التدريسية الكفوءة .

٦- إيجاد الحلول للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

٧- توجيه جيل الطلبة نحو العلم والمعرفة والأخلاق والقيم الرفيعة .

٨- ربط النتاجات العلمية والإنسانية بخطط الدول القومية في التنمية .[٤]

---

(٣) Aitken, Robert, Administration of University, London, ١٩٦٦,pp(٣٠-٣٣) يراجع أيضا : عبد الرحمن عيسوي ، (تطوير التعليم العالي الجامعي العربي :دراسة حقلية)، الإسكندرية ، منشأة المعارف (د.ت) ص(٣-٤) .

(٤) داخل حسن جريو (الدراسات العليا وآفاقها المستقبلية في الجامعات العراقية) عمان ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ،ع١٢٩ ، ١٩٩٤ ، ص(١٤٠-١٤٢).

وقد تميزت الجامعات في العالم الثالث بتغير وظائفها إبان مرحلة الاستقلال السياسي التي شهدتها في النصف الثاني من القرن العشرين فتحولت الجامعات الى مصانع للانتاج الفكري ، ومراكز للتنمية الشاملة ، وضخ التقاليد والقيم الحديثة لتحل محل القيم المستوردة في أروقتها ، نابذة التقاليد السابقة للجامعات الغربية الكبيرة في المناهج والسلوكيات والأنظمة .(٥)

وواجهت الجامعات العربية التي ولدت غالبيتها في العقود الخمسة الأخيرة بل إن بعضها لم يتجاوز عمره العقد أو العقدين من الزمن ، واجهت صعوبات في طريقة رسم الوظائف الخاصة بها وترسيخها على الأصعدة العلمية والاجتماعية والاقتصادية سواء في مجال التعليم العالي والبحث العلمي الجامعي أو في خدمة المجتمع الإنساني .(٦)

فإذا القينا نظرة سريعة على الجامعات العربية يتبين لنا أن ٨٠% لا تزال في مرحلة الشباب لم يتجاوز عمرها ٣٠ سنة ، ونمت في العقدين

---

(٥) السيد الحسيني (التبعية الفكرية والاستقلالية المعرفي : تحليل نقدي لرؤيا وطنية من داخل العالم الثالث) الدوحة ، حول كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، ع١٧ ، ١٩٩٤ ، ص ١١٦ ؛باقر سلمان النجار ، صراع التعليم والمجتمع في الخليج العربي ، عرض مفيد الزيدي ، مجلة العربي ، العدد ٥٤٥ ، الكويت ٢٠٠٤، ص ص١٨٤-١٨٨.

(٦) عبد الرحمن عدس (إعداد عضو هيئة التدريس في الجامعات العربية) بغداد ، ندوة وزارة التعليم العالي العربي ، ١٩٨٥ ، ص ٧٧ ؛مفيد الزيدي ، "المعلم العربي وتحديات العولمة على أعتاب القرن الحادي والعشرين" ، ورقة في مؤتمر جامعة أسيوط-مصر ابريل٢٠٠٠.

الأخيرين نموا كبيرا بحيث مثلت ٦١% من نسبة الجامعـــات العربيـــة ، حيث تضم ٣٥ جامعة أقل من ٥،٠٠٠ طالب أي بنـــسبة ٤٢% ، بينمـــا تحتوى ٣٧ جامعة على ما بين ٥،٠٠٠ – ٣٠،٠٠٠ طالـــب أي بنـــسبة ٤٦% ، في حين أن ١٠ جامعات تضم أكثر من ٣١،٠٠٠ طالب أي بنسبة ١٢ % و ٣ جامعات أكثر ١٠٠،٠٠٠ طالب أي بنسبة ٤% ، وبلغ عـــدد الطلبة في الجامعات العربية نحو ١،٥ مليون طالب جامعي[٧] مما يوضح بجلاء حجم المهمات الملقاة على عاتق هذه الجامعات الناشـــئة للنهـــوض بالعملية التربوية والعلمية في المجتمعات العربية المعاصرة .

ثانيا : من هو الأستاذ الجامعي ؟

أن ما يعاني منه المجتمع العربي المعاصر من جهة تعدد الأزمات في الفكـــر والثقافـــة فـــي الاقتـــصاد والتقنيـــة فـــي حقـــوق الإنـــسان والحرية وسواها ، أنعكس على مجتمع الجامعة العلمي وركيزته الأساسية الأستاذ الجامعي .

فمن هو الأستاذ الجامعي ؟ وما هي مقوماته ؟

نستطيع أن نصف الأستاذ الجامعي المثالي بأنه المفكر وصاحب الرأي الحر ، الذي يشقى بعقله ليوعي الآخرين فهو قارئ المستقبل ، والمعبر عن هموم المجتمع وتطلعات الأجيال ، المثقف العضوي الملتزم بالموضوعية ، الفيلسوف والمؤرخ العلمي اللغوي والاقتصادي رجل

---

[٧] محمد نبيل نوفل (تأملات في فلسفة التعليم الجامعي العربي) بيروت ، مجلة التربية الجديدة ، مكتب اليونسكو الإقليمـــي س ١٧ ، ع١٥١ كـــانون الأول (ديـــسمبر) ١٩٩٠ ص ٢٣ .

القانون والتربوي في داخل الجامعة [٨]. فهذه المواصفات العلمية جعلته يجدّ في البحث عن الحقيقة ، وبجهد في سبيل أثبات الذات مؤمنا برسالة التربية والتعليم ، لذلك يتحلى الأستاذ الجامعي – مبدئيا – بالتواضع والعلم والخبرة الحياتية والخلق والبحث والتفكير ، فتؤهله هذه الإمكانات لكي يتبوأ مكانة في المجتمع تكون لائقة به .[٩]

إن المقومات الأساسية للأستاذ الجامعي تجعل منه عالما ومجتهدا ومحيطا بالمعرفة في مجال اختصاصه قادرا على إجراء الدراسات والبحوث العلمية وإغناء المعرفة الإنسانية ، وتصحيح مسار الأمة ، فهو المدرس والباحث المربي ورجل الأخلاق ، الإنسان القدوة في المجتمع الذي يصمد أمام المحن ، والعقل الذي لا تهزه الكوارث ولا تغيره الإغراءات البعيدة عن تفاهات العصر .[١٠]

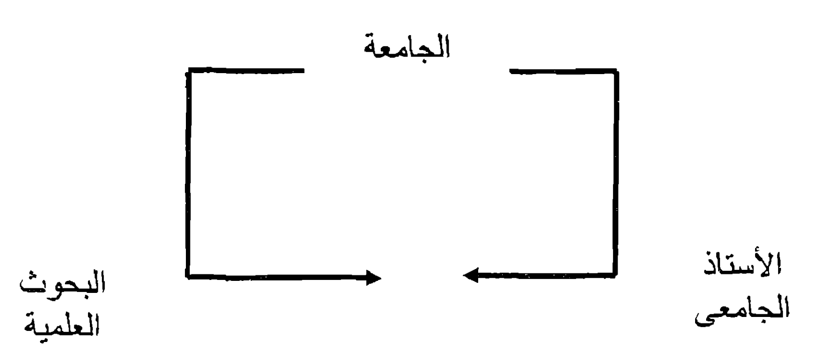
فالمعادلة الأساسية في كليات التربية خاصة والجامعات عامة تتلخص بالآتي : لا أستاذ جامعي بدون حرية البحث العلمي، ولا جامعة بدون أستاذ جامعي ، ولا جامعة بدون بحث علمي فهي إذن معادلة ثلاثية مترابطة ومتكاملة في إطار العملية التعليمية والتربوية .

---

[٨] أحمد سويلم العمري (معجم العلوم السياسية الميسرة) القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص ٦٧ .

[٩] نوفل ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

[١٠] السيد عمار (الحرية الأكاديمية) الكويت ، مجلة العربي ، ع١٢٣٧ ، آب (أغسطس) ١٩٨٢ ، ص (٧٩) .علي أومليل (الحرية الأكاديمية والمواثيق الدولية) مجلة المستقبل العربي ، ع١٩٠ ، س١٧ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٤ ، ص (٣٠ – ٣٤) .



أن الواجب يقتضي ربط أطراف المعادلة الثلاثية لكي يضمن الأستاذ الجامعي حريته العلمية في البحث العلمي ويبتعد عن عدها هما كبيرا في حياته اليومية . فيتفاعل بحيوية وعملية مع الجامعة حوارا وبحثا وتدريسا ، بل يتفاعل مع المحيط الخارجي بالمشاركة العلمية في الندوات والمؤتمرات في الجامعات المحلية والعربية والعالمية . فيحرص على متابعة الجديد من الإصدارات والبحوث والنشرات في مجال تخصصه العام أو الدقيق ، فتبتعد النظرة التشاؤمية عن تفكيره حيال دوره في المجتمع ، ومكانته في الجامعة ومستقبله في حقل التربية والتعليم .

ثالثا : البحث العلمي في كليات التربية واستشراف المستقبل :-

إن اعتبار كليات التربية العربية في الغالب جزءً من الأجهزة الحكومية واعتمادها في الدعم المالي والإداري المعنوي على هذه الأجهزة يمثل أساس الأزمة التي تعيشها الجامعات العربية . فغالبا ما تقرر هذه العلاقة شكل السياسة الواجب على الجامعة انتهاجها حيال الحكومة ، فتفرض الأخيرة الصيغ والقوالب الجاهزة على الأولى من دون تشخيص وتحليل لواقع هذه المؤسسة الفكرية ، فتأتي العلاقة والممارسات غير سليمة

بل مشوهة مما يفقد الجامعة الكثير من اعتبارها ومميزاتها وسماتها الشخصية والعلمية .[١١]

وكليات التربية على أبواب القرن الحادي والعشرين مراكز للتعامل مع المعلومات الحديثة ، والتقنيات المتقدمة ، والوسائل المتطورة ، وليست مجرد مراكز لصنع الأعداد الغفيرة من الخريجين حملة الشهادات الجامعية ، بحيث تتحول إلى نظام آلي ضعيف ، عديم الصلة بالمجتمع . فتصبح بيروقراطية إدارية تنتج مفردات في المناهج التقليدية ، وتفتقد التقاليد الجامعية .[١٢]

ومما يفاقم الأزمة نظام التعليم العالي لا يمتلك خريطة مفصلة ومتكاملة في التخطيط والتنفيذ ، فتتكرر أنماط من كليات التربية لها تخصصات متشابهة ، وتحتاج إلى أعداد كبيرة من الإداريين والمدرسين الموهوبين علميا لقيادة العملية التربوية والتعليمية ، وهذا مالا يمكن تحقيقه بفترة زمنية قصيرة ، فتكون الكمية على حساب الكفاءة والنوعية والمؤهلات الجامعية[١٣].

---

[١١] حسين سعيد ((إشراف)) (حرية الفكر) الموسوعة الثقافية ، القاهرة ، دار المعرفة ١٩٧٢ ، ص٣٩٧ .

[١٢] باسل فلتشر (الجامعات في العالم المعاصر) ترجمة موفق الحمداني ، بغداد ، جامعة بغداد ١٩٧٢ ، ص (١٠١ – ١١٥) .

[١٣] تنمية الكفايات البشرية عربيا في التعليم والبحث العلمي (المؤتمر الثالث للوزراء والمسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي)، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص (٤٨ – ٥٠) .

وتعاني كليات التربية العربية أيضا من ضعف الدعم المالي مقارنة بالميادين الأخرى في الحياة ، فلا يصرف على البحث العلمي والدراسات الجامعية لأعضاء الهيئة التدريسية إلا الشيء القليل مما يزيد معاناة المدرس في عدم توافق الجهد المبذول مع المردود المالي والمعنوي وهذا ركن آخر من أركان انتقاد الحرية الجامعية ، مما يقلل من أعداد الدراسات والبحوث الجامعية العربية مقارنة بالبحوث المنجزة في الجامعات الأوروبية والإقليمية المجاورة على سبيل المثال .[١٤]

إن انخفاض الحرية في البحث العلمي في كليات التربية ، وعدم إتاحة الفرصة أمام الأستاذ الجامعي للمشاركة في اتخاذ القرار ، أو عدم توافر مستلزمات البحث العلمي ،لا تساهم في حل العقد المستعصية لأزمة المجتمع العربي المعاصر[١٥] . وقد جاء في تقرير استراتيجية تطوير التربية العربية لعام ١٩٧٧ ، ما يأتي : (تمر الأمة العربية في الربع الأخير من القرن العشرين بمرحلة خطيرة من مراحل تاريخها الطويل وتقف فيها على مفترق الطرق وتتعدد أمامها المسارات وتتشعب الدروب ففي أي مسار تسير وأي الدروب تختار ؟ إن عليها خير أحوالها أن تستثمر إمكانياتها غاية ما يسعها لتتصدى لتلك التحديات وتتقي نذرها وتؤمن مخاطرها وتتجاوز ذلك لتمضي مع بشائر التقدم والرخاء.)[١٦]

---

(١٤) عمار ، المرجع السابق ، ص (٧٦ – ٧٧) .

(١٥) عمر محمد خلف (ديمقراطية التعليم العالي في الدول العربية) عمان ، مجلة إتحاد الجامعات العربية ، ع١٢١ ، ١٩٨٦ ، ص (٩٦ – ٩٧) .

(١٦) هشام البعاج (الحريات الأكاديمية وحقوق الإنسان : نعم لسطان العقل لا للإرهاب)، بغداد ، جريدة حقوق الإنسان ، حزيران (يونيو) ١٩٩٥ ، ص(٣) .

أذن يجب علينا كإدارات وأساتذة في كليات التربية أن نتصدى بجرأة وموضوعية لأزمة البحث العلمي في جامعاتنا العربية بالتعرف على العلل والمسببات وإيجاد الحلول والمعالجات ، ووضع التصورات والتوصيات كي تسير العملية التربوية والتعليمية على أسس رشيدة ، والعرب يتطلعون إلى المستقبل في القرن الجديد . فالتعليم العالي أصبح المصدر الأساسي للتنمية القومية ، والقاطرة التي تسير على دروب الحضارة والمدينة الحديثة ، وإن الاهتمام بالتعليم العالي يخلق جامعات عصرية تحمل قيما وتقاليد متطورة . فما العمل ؟ وكيف يمكن الخروج من دائرة الأزمة ؟

إننا نقترح بعض الحلول والمعالجات ، مستشرفين آفاق مستقبل الجامعات العربية في إطار البحث العلمي الجامعي :

١-منح كليات التربية كجزء من الجامعات الاستقلال المالي والإداري في اختيار القيادات داخل المؤسسة وممارسة الحوار العلمي ، وتمتين التقاليد الجامعية وترسيخها ومنح الأستاذ الجامعي الصلاحيات الإدارية والعلمية ، وإعادة النظر في وضعه المعاشي باستمرار بما ينسجم ومتطلبات الحياة والعيش الكريم له ولأسرته .[١٧]

٢-السماح بالتفرغ الجامعي للأساتذة في كليات التربية ، وتخفيف الأعباء التدريسية عنهم ومنحهم فرص الإيفاد إلى الخارج ، والمشاركة

---

[١٧] عبد الله مصطفى (الحرية الجامعية قصص من واقع الحياة) ، بغداد ، مطابع التعليم العالي ١٩٨٩ ، ص (١٧ – ١٨) .

في الندوات والمؤتمرات وتبادل الأفكار مع الأساتذة بكليات التربية العالمية .[١٨]

٣-وضع مقاييس واختبارات علمية للأساتذة الجامعيين في كليات التربية، والاستغناء عن قسم منهم في حالة عدم نجاحهم في الاختبارات الخاصة بالتدريس والبحث العلمي والتقاليد الجامعية والمناهج التعليمية .[١٩]

٤-تقديم الضمانات الأدبية والمادية للأساتذة ، والعمل على اجتذاب الكفاءات العلمية وإيقاف هجرة الأدمغة العربية .

٥-احترام آراء مجالس الأقسام والكليات في الإدارة والتخطيط في كليات التربية، وعدم انتهاج سياسة فوقية في إدارة الجامعات ، وأن يعهد للكفاءات العلمية والإدارية بشغل المراكز القيادية في الجامعات .[٢٠]

٦-الاعتماد على الأستاذ الجامعي في الاستشارة ضمن لجان التخطيط والإدارة والتأهيل والتطوير والتعيين ، ووضع المناهج والقبول والأجازات الدراسية لكي يشعر بأنه جزء من عملية الإدارة وصنع القرار في الجامعة .

---

[١٨] منذر الشاوي (كتابات جامعية) بغداد ، دار الحكمة ١٩٩٠ ، ص (٤٩ - ٦١) .

[١٩] هاشم الملاح (الجامعات مراكز انبعاث وتجدد حضاري) الموصل ، الندوة العلمية التربوية الرابعة ، ٨ ، ١١ / ٥ / ١٩٨٥ ، ص (١٢٨-١٣٣).

[٢٠] بو بطانة ، المرجع السابق ، ص (١٠١) .

٧- إيقاف تجاوزات الطلبة وعدم إتاحة الفرصة أمامهم لمضايقة الأستاذ في الأقسام ومجالس الكليات أو استخدام عناصر الضغط والوساطة كأسلوب للتعامل داخل الجامعة .

٨- إنعاش الحياة الجامعية في كليات التربية، وتوفير وسائل البحث العلمي ، وفتح المكتبات الجديدة ، وتوفير المستلزمات الحديثة للبحث والتدريس ، ورفد المكتبات بالدراسات والدوريات الحديثة والنشرات والكتب مما يساهم في خلق أجواء علمية نشيطة .

٩- إعطاء كليات التربية كجزء من الجامعات قدرا كبيرا من الحرية والتعامل العلمي ، وعقد الحلقات الدراسية والمناقشات العلمية في إطار مناخ علمي لا يتعارض مع روح القوانين والأنظمة الجامعية .[٢١]

١٠- تطبيق شعار (الجامعة حرم أمن) وسن القوانين والتشريعات التي تعزز هذه الممارسة وانتهاج العقلانية بديلا عن الوصاية فتعانق الحرية العلم . وبذا تصبح الجامعة أداة للنهوض الثقافي ، والتنوير المعرفي ، والتجديد العلمي ، والتحديث التقني والانبعاث الحضاري .

١١- فإذا أراد العرب العبور إلى ضفة القرن الحادي والعشرين ومواكبة التطور العلمي العالمي ، فعليهم أن يكونوا مستقلين بحثيا وعلميا في جامعاتهم وان يبنوا صروح المنهجية الجامعية والبحث العلمي والتقاليد القويمة .[٢٢]

---

[٢١] نوفل ، المرجع السابق ، ص (١٢ – ١٤) .

[٢٢] إبراهيم سعد الدين وآخرون (صور المستقبل العربي) ط٢ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥ ، ص (٩٦) .